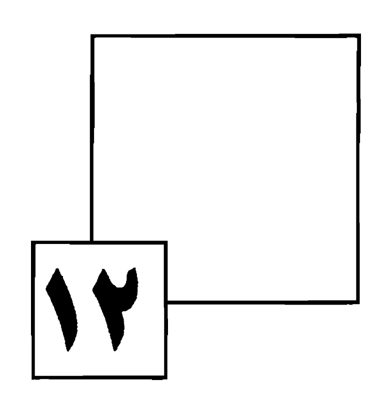
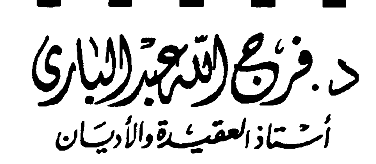
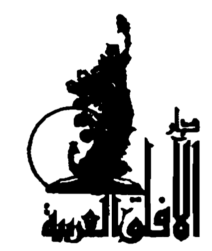
موسوعة العقيدة والأديان



النبوات
بين الإيمان والإنكار





دار الآفاق العربية

نشر - توزيع - طباعة
٥٥ - ش محمود طلعت - من ش الطيران
مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٢٦١٧٣٣٩ - تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
E-mail : daralafk@yahoo.com

اسم الكتاب : النبوات بين الإيمان والإنكار
اسم المؤلف : د. فرج الله عبد الباري

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٣٧
الترقيم الدولى : 9 - 122 - 344 - 977

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد :

فإن اتصال السماء بالأرض قديم قدم البشرية، فمنذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض، ونور الوحى يضىء لأهل الأرض طريقهم فى الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، وعبادته على الوجه الصحيح، وكلما انحرفت البشرية عن وحى السماء كلما تردت إلى الوثنية فى العبادة، وإلى الضنك فى المعيشة وإلى العذاب فى الآخرة.

يقول تعالى ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (1) والأنبياء هم صفوة الله من خلقه، اختارهم من بين عباده ليبلغوا الناس عن الله، ما يجب وما يجوز، وما يستحيل فى حقه سبحانه وتعالى ويرسموا للبشر طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة.

ولقد اقتضت حكمة الله أن يرسل إلى كل أمة من الأمم البشرية على اختلاف ألسنتهم، وألوانهم، وأوطانهم، رسلاً مبشرين ومنذرين، يقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(2).

---

(١) سورة طه الآيات (١٢٣ ـ ١٢٧).

(٢) سورة فاطر الآية (٢٤)

ولقد أنبأنا القرآن الكريم عن هؤلاء الرسل على وجه الإجمال وذكر عددًا منهم على سبيل التفصيل يقول عز وجل ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (١).

هؤلاء الرسل أنذروا قومهم ومن تلك الأمم من آمن وصدق، ومنهم من كذب وكفر، واستبعدوا أن يرسل الله بشرًا فأنكروا النبوات، ووقفوا فى وجه رسلهم موقف العناد والمكابرة. وقد وجد المكذبون منذ عهد سيدنا نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى إلى عهد سيدنا محمد. بل ووُجدوا فى المجتمع الإسلامى بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، بل وظلوا إلى العصر الحديث وإخوانهم فى الغيِ والضلال هم الماديون والملحدون ومن على شاكلتهم من العلمانيين وأشباههم.

لقد تتبعت فى هذه الدراسة شبهات هؤلاء المنكرين منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، مرورًا بالقرون من بعده، وانتهاءً بالعصر الحديث.

وبينت الأصول المتشابهة التى استند إليها المنكرون للنبوات، وعرضت ردود القرآن الكريم المفحمة عليهم.

وعند التعرض للمنكرين للنبوات فى العصر الحديث، فندت شبهاتهم وأقمت الحجة عليهم بالأدلة العلمية مستخدمًا نفس الأسلوب الذى استخدموه فى إنكار الوحى لتكون مقارعة الحجة بالحجة.

وإن تعجب من هؤلاء لإنكارهم اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحى والنبوة، فالأعجب من أولئك جميعًا: اليهود والنصارى الذين يعترفون بأصل النبوة التى تقوم على جواز إخبار الله لبعض خلقه بالوحى والرسالة، بل ويعترفون ببعض الأنبياء.

---

(١) سورة النساء الآية (١٦٤).

ولكنهم ـ للأسف الشديد ـ يتفقون ـ رغم اختلافهم ـ على إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بالرغم من ثناء القرآن الكريم على الأنبياء والمرسلين من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم موسى وعيسى عليهما السلام، إن اليهود يؤمنون بالأنبياء قبل عيسى عليه السلام، وإن كانوا يصفون الأنبياء بصفات لا تليق بالمؤمنين، فضلاً عن الأنبياء المرسلين، فهم يصفون إبراهيم عليه السلام بالكذب[١] وعدم المروءة، ولوط بالزنا[٢]، ويصفون نوحًا بالسكر والهوى [٣]، ويصفون داود عليه السلام بالزنا [٤]، وينكرون عيسى عليه السلام ويصفونه بالكذب والدجل والزنا [٥]، ويصفون أمه العذراء البتول التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين ـ بالفاحشة ـ برأها الله مما قالوا.

فإذا ما وصلنا إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، فإن اليهود قد أنكروا نبوته صلى الله عليه وسلم، وناصبوه العداء منذ بعثته ودعوته في مكة، قبل أن ينتقل إلى المدينة المنورة، وكانوا يستبعدون أن تأتي شريعة من عند الله، تنسخ شريعة التوراة في زعمهم، ولقد عرضت أسباب إنكارهم لنبوة عيسى ومحمد عليهما السلام، وبينت الأسباب العامة والخاصة التي جعلتهم ينكرون نبوة محمد وعيسى عليهما السلام، ثم استخرجت نصوصًا من العهد القديم الذى يعده اليهود الكتاب المقدس عندهم..

هذه النصوص تقيم الحجة الدامغة على اليهود، سواء من ناحية البشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة، أو من ناحية بطلان النسخ الذى استندوا عليه فى رفضهم لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

وانتهيت إلى أن اليهود ــ كما أخبر القرآن الكريم ـ يعرفون محمدًا صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، يقول تعالى ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[٦].

---

(١) تكوين ١٢ : ٢٠/١١.
(٢) انظر سفر التكوين ٩ : ٢٧/٢٠.
(٣) سفر التكوين ١٩ : ٣٧/٣٠.
(٤) صموئيل الثانى ١١ : ٢٦/٣.
(٥) يوحنا ٨ : ٤٣/٣٩.
(٦) سورة الأنعام الآية (٢٠)، والبقرة الآية (١٤٦).

أما النصارى فإنهم يعترفون بالأنبياء قبل سيدنا عيسى عليه السلام الذى يَعُدُه النصارى إلهًا وابنًا للإله - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ومن بين الأنبياء الذين يعترف بهم النصارى آدم ونوح وإبراهيم وموسى، ولكن النصارى تتوقف عند عيسى، ولا يؤمنون بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على الرغم من بشارة التوراة والإنجيل به.

ولقد حاولت فى جزء من هذه الدراسة أن أجيب على السؤال التالى:

لماذا ينكر النصارى واليهود، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟

ولقد ظهر لى أن هناك من الأسباب العامة والخاصة التى منعتهما من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وتعجبت أن من بين الأسباب الرئيسية التى منعت النصارى من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وصف القرآن الكريم لعيسى عليه السلام بالعبودية، فقد اعتبر النصارى أن مجرد وصف عيسى بأنه عبد الله ورسوله سب له..

لقد جاء وفد نجران إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: مالك تشتم صاحبنا؟ قال ما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" [(١)].

فمجرد وصف عيسى بالعبودية اتخذه النصارى مانعًا من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم، إذ كيف يكون الإله فى نظرهم عبدًا لله؟

ويضاف إلى أسباب رفضهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم حب الرياسة والجاه والسلطان.

ولقد كنت أتمنى من النصارى على وجه الخصوص أن يردوا الجميل إلى الإسلام ونبيه الذى برأ عيسى وأمه مما وصفهما به اليهود، ولكن الأمنية شىء والواقع شىء آخر.

---

(١) انظر: تفسير الألوسى (١٨٦/٣)، ولباب المنقول فى أسباب النزول للسيوطى (ص ٨٥).

إننى أتمنى الآن أن يكف النصارى عن الهجوم على رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، وأن يتجردوا فى دراسة الإسلام، ليصلوا إلى الحق المبين، والصراط المستقيم.

وأخيرًا أهتف بنداء القرآن الكريم الخالد: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

هذا وكفى بربك هاديًا ونصيرًا.

أ. د / فرج الله عبد البارى أبو عطا الله

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

---

(١) سورة آل عمران الآية (٦٤).

المدخـــل

ويشمل:

تعريف النبى والرسول:

النبوة والنباوة: ما ارتفع من الأرض. فإن جعلت النبى مأخوذًا منه أى أنه شرف على سائر الخلق، فأصله غير الهمز وهو فعيل بمعنى مفعول[1]. فالنبى على هذا هو الرفيع المنزلة عند الله تعالى.

والرسـول: هو الذى يتتابع عليه الوحى من رسل اللبن إذا تتابع دره وكل رسول لله عز وجل نبى، وليس كل نبى رسولاً له.[2].

الفرق بين النبى والرسول:

النبى من أوحى الله تعالى له بالوحى سواء أمر بتبليغه أو لا. أما الرسول فهو من أوحى الله إليه برسالة ليبلغ بها غيره.

يقول ابن العز شارح الطحاوية:

"وقد ذكروا فروقًا بين النبى والرسول وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبى رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبى وليس برسول، فالرسول أخص من النبى، فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً"[3].

---

(1) مختار الصحاح (ص ٦٤٤).

(2) أصول الدين للبغدادى (ص ١٥٤).

(3) شرح الطحاوية لابن أبى العز (ص ٩٧) تحقيق: أحمد محمد شاكر.

والـذين ذهبوا إلى التفرقة على هـذا الـنحو بين النبى والرسول استدلوا بقول الله تعالى﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾[1] .

وقالوا: الآية تدل على التغاير بين النبى والرسول، لأن الله تعالى عطف النبى على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص.

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كم المرسلون؟ فقال: ثلثمائة وثلاثة عشر فقيل: والأنبياء؟ فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا الجم الغفير"[2] .

ويذهب القاضى عبد الجبار من المعتزلة إلى أن مجرد الفصل فى الآيةالسابقة بين النبى والرسول لا يدل على الاختلاف فى الجنس[3] .

ويستشهد على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾[4] .

وعموما فهى مسألة خلافية لا نعتنى بها كثيرًا فى بحثنا هذا.

الأصل فى معرفة الرسول بأنه مرسل من عند الله:

ذكر علماء التوحيد أنه لابد للرسول من حجة وبرهان يعلم به أن الله تعالى قد أرسله، ويصح علمه بذلك من وجوه منها:

[١] أن يخاطبه الله عز وجل بلا واسطة، ويخلق فى قلبه علمًا ضروريًا يعلم به أن الذى يخاطبه ربه لا غيره، مثل خطاب الله لآدم عليه السلام حين نفخ فيه من روحه وأعلمه بالضرورة معرفة ربه، وأنه هو الذى خلقه وخاطبه،

[٢] أن يخاطب الله الرسول بلا واسطة ويظهر فى تلك الحال دلالة تدل على أن المخاطب هو الله تعالى مثل خطاب الله لموسى عليه السلام.

[٣] أن يرسل الله ملكًا إلى الرسول ويأمره بالرسالة ويظهر عند إرسال الملك معجزة يعلم بها أن الذى أتاه ملك وليس بشيطان[5] .

---

(١) سورة الحج الآية (٥٢).

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازى، والمجلد الثانى عشر (٢٣/٤٩، ٥٠)، وانظر الكشاف للزمخشرى (١٨/٣).

(٣) الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص ٥٦٨) بتصرف يسير.

(٤) سورة الأحزاب الآية (٧).

(٥) انظر: أصول الدين للبغدادى(ص ١٥٧).

عدد الأنبياء والرسل:

أجمع أصحاب التواريخ من المسلمين على أن أعداد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، كما وردت بهم الأخبار الصحيحة أولهم آدم عليه السلام وآخرهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الرسل: فإن عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر[1].

أما أولو العزم فهم: سيدنا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. وخمسة منهم من العرب وهم: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم السلام.

ويدل ذلك العدد الضخم من الأنبياء .. على أمور منها:

أولاً: أن اتصال السماء بالأرض واختيار الله عز وجل للأنبياء قديم قدم البشرية.

ثانيًا: أن هذا العدد يؤكد إرسال الله عز وجل أنبياء لكل الأمم﴿ **إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾** ﴾[2].

ثالثًا: أنه بالرغم من هذا العدد الكبير، إلا أن الذى وصلنا من عددهم قليل، وهذا يجعلنا نؤمن ونصدق بمن أعلمنا الله بهم ويمن لم يخبرنا بهم، يقول تعالى ﴿ **وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾[3].

ما يجب للرسل وما يستحيل عليهم:

والواجب على المؤمن تجاه الأنبياء والرسل الإيمان بهم جميعًا وأن يعتقد صدقهم وأمانتهم، وتبليغهم لرسالة ربهم، لأن الإيمان ببعضهم والكفر بالبعض الآخر يُعد كفرًا وشركًا، يقول تعالى ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾[4].

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) فاطر الآية (٢٤).

(٣) سورة النساء الآية (١٦٤).

(٤) سورة النساء الآية (١٥٠ ـ ١٥١) وانظر تفسير ابن كثير فى هذه الآيات (١/٥٧٢) طبعة عيسى البابى الحلبى.

كما يجب على المؤمن أن يعتقد بأن الأنبياء والرسل أكمل الخلق من ناحية الأخلاق والعمل، وأن الله سبحانه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد من البشر.

أما ما يستحيل عليهم، ولا يجوز أن يتصفوا به ولا أن يقع منهم فأمور منها: الكذب، والخيانة، والكتمان، وعدم تبليغ الرسالة، كذلك يستحيل عليهم الكبائر كلها والصغائر، وقد تقع منهم بعض الزلات والخطايا اليسيرة، بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات، كما وقع لآدم عليه السلام فى أكله مِنَ الشجرة على وجه النسيان، ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها [١].

بيان حاجة البشر إلى الرسالة:

لقد تناول علماء الإسلام القدامى والمحدثين بيان حاجة البشر إلى الرسالة فى معرض مناقشتهم للمنكرين للنبوات سواء من المنكرين للألوهية أو من المعترفين بها المنكرين للرسالة.

وبنوا حديثهم عن حاجة البشر إلى الرسالة على أمرين:

الأول: أن الأنبياء يأتون بما لا تستقل العقول بإدراكه، مثل ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من النقص، وما يجوز أن يتصف الله به، ومثل المعاد الجسمانى، وكيفية عبادة الله، وتعيين الحدود وتعليم ما ينفع وما يضر من الأفعال ومعرفة تفاصيل الثواب والعقاب للعاصى، لأن العقل فى هذه الأمور لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد، ولا يفرق بين الشقى والسعيد، فكان من لطف الله بعباده أن يرسل لهم رسولاً يبين ما لا يستطيعون الاستقلال به بعقولهم [٢].

الثانى: أن الناس يحتاجون إلى شرع يحتكمون إليه وهذا الشرع يأتى عن طريق الأنبياء، وبيان ذلك أن الإنسان محتاج بطبعه فى معاشه إلى اجتماع يتيسر بسببه المعاوضة ومن ثمَّ قيل "الإنسان مدنى بطبعه"، وهذا الاجتماع لا يتم ولا ينتظم إلا إذا كان بينهم معاملة وعدل، لأن كل واحد يشتهى ما هو محتاج إليه، ويغضب على مزاحمة غيره له ويختار جميع العادات لنفسه، وحصول هذه العادات لفرد واحد

---

(١) انظر: الإيمان (ص ٤٩ ، ٥٠) للدكتور محمد نعيم ياسين. مكتبة السنة، وانظر: المقاصد للسعد التفتازانى، وانظر دراسات فى العقيدة الإسلامية للدكتور أحمد عبد العال.

(٢) انظر: الاقتصاد فى الاعتقاد (ص ١٦٤ ، ١٦٥) والمواقف (ص٣٤٥) والمقاصد (٢/١٢٨).

يستدعى فواتها عن غيره، فلهذا يؤدى إلى التنازع ويختل أمر الاجتماع وهذا الاختلال لا يندفع إلا إذا اتفقوا على معاملة وعدل، والعدل والمعاملة غير متناول للجزئيات التى لا تنحصر، فلابد من قانون كلى، هو شرع يحفظه، والشرع لابد له من شارع يقرره على ما ينبغى ويكون متميزًا عن الآخرين بخصوصية فيه من قبل الخالق لينقاد الباقون له، وإلا لما قبلوه ولم ينقادوا إليه، وأن يكون إنسانًا يخاطبهم ويلزمهم المعاملة على وفق ذلك القانون، ويراجعونه فى مواضع الاحتياج ومظان الاشتباه. فتلك الخصوصية هى البعثة والنبوة، وذلك الإنسان هو النبى (١).

وإذا كان الله عز وجل يرسل كل فترة من الفترات رسولاً إلى البشر ليرشدهم، فقد ختم الرسالات بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وكما يقول الأستاذ "وحيد الدين خان" : "إن أكبر دليل على ضرورة الرسالة هو أن الأمر الذى يخبر عنه الرسول من أهم الأمور التى تتعلق بحياة الإنسان ومصيره، والإنسان لا يستطيع أن يصل على تلك الحقائق بجهوده الشخصية، إنه يبحث منذ آلاف السنين عن حقيقة الكون كى يفهم أسرار بدء الحياة ونهايتها، وحقائق الخير والشر، وكيفية صوغ الإنسان من أجل الإنسانية أن تسير قدمًا فى طريق الخير والرفاهية، ولم تكلل هذه الجهود بالنجاح إلى يوم الناس هذا.

فقد كشفنا عن أسرار الحديد والبترول وتعرفنا على حقائق الطبيعة بعد جهد تصير، ولكننا عاجزون عن كشف "علم الإنسان" رغم أن جهود أعظم عقولنا العبقرية تواصل البحث عن هذا العلم، ولم تستطع حتى الآن تحديد مبادئه وأسسه، إن هذا أكبر دليل على أن الإنسان يحتاج إلى الوحى وهدى الله من أجل أن يعرف نفسه" (٢).

ولقد استطاع الأستاذ وحيد الدين خان أن يصل إلى كبد الحقيقة بعد هذا التوصيف لما آل إليه أمر الإنسان فى القرن العشرين والحاجة إلى الوحى تعنى الرجوع إلى تعاليم الدين الخاتم الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لاشتماله على كل

---

(١) انظر : مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار (ص ٤٠٩ ، ٤١٠)، وانظر : شرح المقاصد للسعد (٢/ ١٣٣).
(٢) الإسلام يتحدى (ص ٩٨، ٩٩).

متطلبات الإنسان والإجابة عن كل ما يعرض على نفسه من أسئلة فى الكون أو فى الحياة.

وقد عرض "جمال الدين الأفغانى" أمورًا أربعة، وناقش احتمال ردعها للإنسان عن شهواته وأهوائه فى الدنيا. وانتهى إلى أن ثلاثة منها وهى التى لا تقوم على الدين، لا يمكن أن تردع الإنسان عن الاعتداء والإجحاف بحقوق غيره. هذه الأمور الأربعة هى:

١. المدافعة الشخصية.
٢. شرف النفس.
٣. الحكومة.
٤. الاعتقاد بالألوهية.

يقول ما ملخصه: "فقصر النفوس على طريقة محدودة وتوقيف أهوائها عند حدود معينة ومنعها من تجاوز حد الاعتدال فى آثارها وأعمالها وإرضاء كل ذى شهوة بحقه وكفه عن الاعتداء والإجحاف بحقوق غيره، هذا كله إنما يكون بأحد أمور أربعة:

إما المدافعة الشخصية : فإن الغلبة فيها تكون للأقوياء على الضعفاء يومًا إذا ما ثاروا على الأقوياء فلا يزال صاحب القوة يعتدى على الضعيف والأقران يسحق بعضهم بعضًا إلى أن يعم جميعهم الفناء، ولعل ما نشاهده فى القرن العشرين خير شاهد على ما ذكره جمال الدين الأفغانى فإن منطق القوة هو الذى يسيطر الآن بالرغم من الشعارات البراقة التى ترفع مثل حقوق الإنسان ومنظمة العدل الدولية، وخلافها من الواجهات التى لا خير من ورائها،

أما شرف النفس: فهى صفة ليست لها حقيقة معينة ولا هى فى حدود معرفة فإن ما يعتبره البعض من الشرف والشجاعة يستهجن عند الآخرين مثلما نرى عند سكان البادية والجبال من القبائل، فإنهم يعدون الغارة والفتك بالأرواح وانتهاب الأموال واسترقاق الأحرار من فعال المجد فى حين أن هذه الفعال يعدها سكان المدن من علائم الخسة والدناءة، وكذلك الحيلة والمكر والخداع يحسبها قوم خسة وخبثا،

ويحسبها الآخرون من الوضاعة والدناءة فلم تبق ريبة فى قصور خلة شرف النفس عن الكفاية فى تعديل الأخلاق وتحديد الشهوات، وحجب العدوان، وحفظ النظام الإنسانى.

أما الحكومة: فإن الحكومة تتعامل مع الظاهر من الأمور، أما أنواع المفاسد الخلقية التى لا يطلع عليها أحد، فإن الحكومة لا تستطيع التدخل فيها أو الإطلاع عليها، ثم إن كثيرًا من الحاكمين فى خفى أمرهم من رؤساء السارقين، وأعوانهم آلات تستعمل فى الجور وأدوات يستعان بها على الفساد والشر.

الأمر الرابع: الاعتقاد بالألوهية: وبكل ما يصدر عنها، لأن هذه العقيدة هى التى تقف أمام الشهوات، لأن صاحبها يعلم أن الله يعلم سره ونجواه، وأن هناك يومًا سيحاسب فيه عن كل ما قدمت يداه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فعقيدة الألوهية واليوم الآخر وازعان قويان يكبحان جماح النفس على الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه[1] .

ومعلوم أن الرسول هو الذى يبين للخلق حدود الحلال والحرام، وهو الذى يخبرهم عن الآخرة وتفاصيلها.

فعُلم أن العقيدة الدينية القائمة على تصور صحيح للألوهية والمعتمدة على رسالة واضحة لا دخل فيها لأحد من البشر بالتحريف أو بالزيادة أو النقصان هى العقيدة التى تضمن للناس سعادتهم فى الدنيا والآخرة، وليس هناك عقيدة قائمة على هذه الأسس إلا الإسلام.

---

(١) انظر الرد على الدهريين (ص٨٢ ـ ٩١) جمال الدين الأفغانى، ترجمة الإمام محمد عبده الناشر: مكتبة السلام العالمية.

إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعموم بعثته

إثبات النبوة ودلائلها:

اصطفى الله عز وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم ليكون الرسول الخاتم للبشرية كلها، وهذا الاصطفاء والاجتباء منحة من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده الذين علم الله عنهم أنهم أهل للاصطفاء. وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم من هذا الطراز الفريد من البشر- عرف بالصادق الأمين قبل البعثة، وبعد البعثة اتصف بمكارم الأخلاق ذلك أن الله - صنعه على عينه فاجتمع فيه الخير كله كمالا وفى الخلق تكاملاً.

وللعلماء فى إثبات نبوته مسالك متعددة - يستدلون من خلالها على أنه رسول الله لإقناع الخصوم أو من يجادلون فى إثبات نبوته، وسوف نختار مسلكين ندلل من خلالهما على نبوته صلى الله عليه وسلم.

المسلك الأول: ما يتعلق بأخلاقه.

المسلك الثانى: ما يتعلق بالمعجزات التى أيده الله بها.

ونبدأ بالمسلك الأول:

أخلاقه صلى الله عليه وسلم، ودلالتها على نبوته

يقول الله عز وجل عن محمد وخلقه "﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [١].

ويقول سبحانه ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢].

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وأصدقهم حديثا وأبعدهم عن الفحش والأخلاق الدنيئة التى تدنس الرجال لقد اجتمع فيه من الصبر، والحلم، والتواضع والجود والشجاعة - ما تواتر عنه صلى الله عليه وسلم حتى صار مضرب الأمثال فى مكارم الأخلاق وشهد له الأعداء بذلك والأصدقاء.

---

(١) سورة القلم الآية ٠٤

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨

وهذه الأخلاق الفاضلة كانت صفاته عند أهل الكتاب فقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن "**يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا**" "وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينًا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا [1].

هذه الصفات الأخلاقية الرفيعة جعلت السابقين الأولين إلى الإسلام يصدقون به صلى الله عليه وسلم دون الحاجة إلى طلب معجزة منه ودون الحاجة منه إلى تقديم معجزة لهم حتى يؤمنوا

يقول شارح الطحاوية "فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله علم يقينا أنه ليس بشاعر ولا بكاهن [2].

ولكن البعض بعد تلك المعرفة قد يعرض مع تيقنه من صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما كان من بعض كفار مكة مثل النضر بن الحارث حيث يقول لإخوانه من كفار مكة قد كان محمد فيكم غُلاَمًا حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر [3]. ومع ذلك أعرض وكفر عنادًا واستكبارًا ولذلك أخذت السيدة من الصدق وصلة الرحم الدليل على أن الله لن يخزي الرسول ﷺ.

لأنه إذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف بدعوى المدعى أنه رسول الله؟ كيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه الأدلة، فلما قال لها صلى الله عليه وسلم بعد أن نزل عليه الوحى "لقد خشيت على نفسى قالت: "كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى

---

(١) رواه البخارى فى البيوع ـ باب: كراهية الصخب فى الأسواق رقم ٢١٢٥.

(٢) شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ١١٠.

(٣) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ٣٦.

الضيف، وتعين على نوائب الحق" فذكرت ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم [١]. هنا لم تطلب السيدة خديجة معجزة حسية ولم يقدم لها الرسول معجزة وإنما الاستدلال على نبوته وصدقه فيما يقول يرجع إلى أمور ذاتية تتعلق بشخصيته صلى الله عليه وسلم.

وكان هذا هو السبب فى تصديق أبى بكر، وزيد بن حارثة، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله بن رباح، وعامر بن فهيرة وغيرهم من الصحابة[٢]. والاستدلال بصفات النبى صلى الله عليه وسلم وأخلاقه على صدق نبوته لم يقتصر على من هم فى داخل الجزيرة العربية وإنما تعدى ذلك إلى خارجها ولعل سؤال النجاشى ـ ملك الحبشة يصلح دليلاً على ما نثبته هنا فقد سأل النجاشى جعفر بن أبى طالب عن الرسول صلى الله عليه وسلم "فلما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه قال : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاه واحدة[٣]. والذى خرج به النجاشى من الاستدلال على نبوته من واقع سيرته ودعوته هو ما يقوم به العقلاء والحكماء الذين يرزقون البصيرة النافذة ويعلمون الرجال وما يفرقون به بين الصادق والكاذب.

وأرانى. مضطرا لذكر قصة هرقل ملك الروم واستدلاله من واقع صاحب الدعوة ـ أى محمد صلى الله عليه وسلم والدعوة أى الإسلام الذى يدعو إليه صلى الله عليه وسلم.

والمستجيبون للدعوة أى الصحابة الذين دخلوا الإسلام وكانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم وبعد أن سأل أسئلة محددة ـ عن الرسول ونسبه وصدقه ووفائه ثم الدعوة وموضوعها ـ والذى تأمر به وتنهى عنه.

ثم المدعوين وحالهم وصفاتهم ومدى تمسكهم بالدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ـ استنبط ـ ما يحكم به العقل ويدل عليه دلالة قاطعة أن من يتصف

---

(١) شرح الطحاوية ص ١١١ / ١١٢.
(٢) الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية ص ٣٣.
(٣) شرح الطحاوية ص ١١٢.

بالصفات التى ذكرها أبو سفيان بن حرب لا يمكن أن يكون كاذبا قال هرقل لأبى سفيان "فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه "[١].

وقصة هرقل تتمثل فى أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل كتابا مع "دحية الكلبى" إلى "هرقل" عظيم الروم فلما وصل الكتاب قيصر قال انظروا لنا رجلا من قومه نسأل عنه وكان أبو سفيان ابن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فقال أبو سفيان أنا لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره فقال قيصر ادْنُ منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم؟

قال: هو فينا ذو نسب.

قال: هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا

قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم

قال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ قال: لا.

قال: هل إلى إذا عاهد؟ قال: لا ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها (يشير على ما كان بين المشركين والنبى من صلح الحديبية)

قال: فهل ما قاتلتموه؟ قال: نعم

---

(١) رواه البخارى بدء الوحى جـ١ ص ٦.

قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا سجال مرة لنا ومرة علينا

قال: فَبِمَ يأمركم؟ قال: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة[1].

إلى هنا هرقل يسأل أبا سفيان أسئلة محددة وأبو سفيان يجيب أيضا بالصدق ـ عن صفات النبى ـ وأصحابه ـ وفحوى دعوته ـ أى الإسلام وهرقل يستمع من خلال الترجمان ولا يعقب ـ ثم نراه بعد ذلك يعيد الأسئلة والأجوبة ويقوم بتحليل لمضمونها واللازم لمن يتصف بها.

يقول هرقل "إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا فقلت: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل،

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم

وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقلت: لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل قاتلتموه؟ فقلت نعم وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: بماذا يأمر؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة

---

(١) صحيح البخارى جـ ١ باب بدء الوحى ص ٨/٧/٦.

والصدق، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك: هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبى، وقد علمت أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم وإن كان ما كلمتنى به فسيملك موضع قدمى هاتين، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك قال أبو سفيان:

فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدرى ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال:

لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر [(١)].

هذا ما كان من أمر هرقل ـ وهو فى خارج الجزيرة العربية ـ هذه الدلالات على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ـ استنبطها هرقل. من طبيعة دعوته ومكارم أخلاقه. ومع أنه لم يؤمن إلا أن ذلك راجع إلى حب السيادة والجاه وآثر ذلك على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والدخول فى دينه ـ وقد صرح هرقل بأن الخوف منعه من ذلك لما أظهره قومه ـ من غضب وصياح ـ كما فى رواية البخارى [(٢)].

ومن عجيب الأمر أن علماء الكلام يذكرون الاستدلال بشخصيته صلى الله عليه وسلم ومكارم أخلاقه فى مرتبة متأخرة من الأدلة على النبوة ويولون المعجزات الحسية اهتماما زائدا على الرغم من الاعتراضات التى توجه إلى دلالة المعجزات الحسية على صدق الرسول. نقرأ نصا "للتفتازانى" فى معرض إستدلاله بأخلاق النبى صلى الله علية وسلم وصفاته على نبوته يقول"وقد يستدل أرباب البصائر على نبوته صلى الله عليه وسلم بوجهين:

أحدهما: ما تواتر من أحواله قبل النبوة، وحال الدعوة وبعد تمامها، وأخلاقه العظيمة، وأحكامه وإقدامه حيث تحجم الأبطال ووثوقه بعصمة الله تعالى فى جميع الأحوال وثباته على حاله لدى الأهوال بحيث لم يجد أعداؤه مع شدة عداوتهم

---

(١) رواه البخارى باب بدء الوحى جـ١ ومسلم فى الجهاد والسير باب كتاب صلى الله عليه وسلم إلى هرقل.

(٢) البخارى باب بدء الوحى جـ١ ص٨/٧.

وحرصهم على الطعن فيه مطعنا، ولا إلى القدح فيه سبيلا فإن العقل يجزم بامتناع اجتماع هذه الأمور فى غير الأنبياء.

ثانيهما: أنه ادعى ذلك الأمر العظيم بين أظهر قوم لا كتاب لهم ولا حكمة معهم وبين لهم الكتاب والحكمة وعلمهم الأحكام والشرائع وأتم مكارم الأخلاق وأكمل كثيرا من الناس فى الفضائل العلمية، والعملية ونور العالم بالإيمان والعمل الصالح، وأظهر الله دينه على الدين كله كما وعده ولا معنى للنبوة والرسالة سوى ذلك [١]." ولعل عبارة التفتازانى تنبئنا عن قيمة هذا الدليل لديه ولدى إخوانه من المتكلمين حيث يقول بصيغة التضعيف والتقليل "وقد يستدل" لأن معظم المتكلمين لا يتكلمون أساسا على جانب الأخلاق وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم كدليل على نبوته.

وقليل من المتكلمين[٢]." يذكرون هذا الدليل على استحياء بعد أن يسوقوا المعجزة كدليل أوحد ومقدم ـ على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكما يقرر أستاذنا الدكتور يحيى هاشم ـ فى نقده لمسلك المتكلمين لتأخيرهم دليل أخلاقه وأحواله على نبوته ـ بعد المعجزة ودلالتها.

يقول حفظه الله ولعمرى ما الذى جعل علم الكلام يهمل كل هذه الدلالات مع غناها من حيث هى دلالة عادية ـ إلا وهمه أن يجد فى المعجزة دلالة أقوى لأنها ترتفع إلى مستوى الدلالة القطعية؟

أحسب أن علم الكلام فى هذا هو أشبه بوالد أهمل أولاده الكثيرين على نجابتهم وحسنهم وفضلهم لأنه ظن لسبب ما أن ولدا آخر له هو أفضل منهم وأحسن وأنجب، وأن له قيمة تفوقهم أجمعين وأنه من شأنه أن يضفى على والده شرفا لا طريق بالآخرين إليه فانكسف بذلك شعاع أولاده ظلمًا دون أن يبزغ شمس المختار منهم[٣]."

---

(١) شرح التفتازانى على العقائد النفسية ط ص ١٨٩.

(٢) انظر مطالع الأنظار للأصفهانى شرح مطالع الأنوار للبيضاوى ص ٤٢٤ وانظر المواقف وشرحها جـ٨ ص ٢٦٠/٢٥٩ وانظر شرح السنوسية الكبرى ص ٣٣٨ تحقيق الدكتور / عبد الفتاح بركة وانظر المنقذ من الضلال للغزالى ص ١٩٠/ ٢٠٥.

(٣) الأسس المنهجية ص ٢٤٦.

هذا ما حدث بالفعل من المتكلمين خلا القليل منهم حين فضلوا الاستدلال بالمعجزات وبدءوا بها على حساب دلالة الأخلاق والأحوال التى لازمته صلى الله عليه وسلم والتى بدلالتها آمنت خديجة بنت خويلد وورقة بن نوفل والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار بل وامتدت إلى خارج الجزيرة العربية كما حدث فى شأن هرقل. بل وأكثر من ذلك كانت أخلاقه هى السبب فى إسلام كثير من الناس خلال فترة دعوته صلى الله عليه وسلم .

المسلك الثانى: المعجزات ودلالتها على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

المعجزة الكبرى الخالدة الباقية للرسول صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم. يقول الله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]".

ويقول سبحانه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2]".

وقد تحدى الله العرب وغيرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة واحدة منه يقول تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3]".

وهذا التحدى هو أغرب تحد فى التاريخ ـ لأن من زعم من العرب قديما أن القرآن ليس من عند الله ـ فليأت بمثله أو بسورة منه ومن زعم فى أى وقت من الأوقات ذلك إلى أن تقوم الساعة فعليه أن يأتى بمثله أو بسورة منه فإن التحدى قائم على وجه الدهر يقول القاضى عبد الجبار "فإن قيل ما وجه الإعجاز فى القرآن؟ قلنا إنه تحدى العرب بمعارضته ـ مع أنهم كانوا فى الغاية من الفصاحة والمشار إليهم فى الطلاقة والذلاقة وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يعارضوه وعدلوا عنه لا لوجه سوى عجزهم عن الإتيان بمثله[4]".

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣.

(٤) الأصول الخمسة ص ٥٨٦.

ويفصل العلماء الوجوه التى من أجلها كان القرآن معجزا وهذه الوجوه منها

أولا : نظمه على وجه مخصوص مفارق لجميع أوزان كلام العرب ونظمه وترتيبه وبلاغته وفصاحته على وجه جاوز فصاحة كل فصيح وبلاغة كل بليغ وكيف عجز العرب، وهم أهل الفصاحة والبلاغة عن أن يأتوا بسورة منه فى مدة ثلاث وعشرين سنة واختاروا الخروج بالسيف مع ما فيه من إراقة الدماء واستحلال النساء واسترقاق الأولاد ـ على معارضة سورة واحدة وفى هذا من العجز الظاهر والنكول الواضح عن الإتيان بسورة منه (١)".

ثانيًا: ما انطوى عليه من الأخبار بالغيوب واشتماله على قصص الأولين مع القطع بأنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب يقول تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢)".

ثم إخباره عن غيوب يعجز الخلق عن معرفتها مثل قوله تعالى ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٣)". وكان الأمر كما أخبر الله على لسانه صلى الله عليه وسلم.

وقوله ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾(٤)".

ومثل قوله تعالى ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ ﴾(٥)".

---

(١) انظر المعتمد فى أصول الدين للقاضى أبى يعلى الفراء ص ١٥٨ / ١٥٩ وانظر الإنصاف للباقلانى ص ٦٢ /٦٣ وانظر نهاية الأقدام للشهر ستانى ص ٤٤٩.

(٢) سورة القصص الأية ٤٨.

(٣) سورة الروم الآية ١/٥.

(٤) سورة الفتح الآية٢٧.

(٥) سورة الفتح الآية ١٦.

وقد دعاهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى قتال العرب والفرس والروم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم [١]".

ومثل قوله تعالى "﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ ﴾ [٢]". وقد ولى المشركون الدبر وهزم جمعهم بعد أن اجتمعوا لقتال النبى صلى الله عليه وسلم فى بدر وقد ذكر القرآن الكريم ذلك يوم أن كان المسلمون مستضعفين فى مكة.

وبالجملة ـ فلو نقب العاقل على ما فيه من الأخبار بقصص الماضين وأحوال الأولين على نحو ما وردت به الكتب السالفة ؛ وما فيه من الإخبار عما تحقق بعد ما أخبر به من الغائبات فإن ذلك يكون كافيا له فى معرفة إعجاز القرآن وصادًا له عن المكابرة والبهتان[٣].

ثالثا: إذا كان القدامى قد استدلوا بوجوه على إعجاز القرآن من ناحية البلاغة والنظم وأيضا من ناحية الإخبار عن الغيوب التى وقعت كما أخبر الله عز وجل فى القرآن ـ فإن المحدثين من الباحثين يضيفون إلى تلك الوجوه وجوها أخرى لإعجاز القرآن تتمثل فى الكشوف العلمية الحديثة التى أخبر عن بعض منها القرآن الكريم ـ ونحن لئلا نحمل القرآن الكريم ما لا يتحمله وينبغى أن نقرر أن مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن الأسرار الواقعة موضوع البحث فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية فى ذلك الموضوع ؛ ولو أن دراسة المستقبل فى موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن بل معناه أن المفسر أخطأ فى محاولته لتفسير إشارة مجملة فى القرآن [٤]".

وسوف نأخذ نموذجا واحدا من إعجاز القرآن فيما يتعلق بخلق الجنين.

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٨٥.

(٢) سورة القمر الآية ٤٥.

(٣) انظر بلوغ المرام للآمدى ص ٣٤٥ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تحقيق حسن محمود عبد اللطيف.

(٤) الإسلام يتحدى ص ١٩٣.

من المعلوم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا ولم تكن له أدنى معرفة بالعلوم والمعارف قبل الرسالة وبعد أن نزل عليه القرآن الكريم شاء الله لهذا الكتاب أن يكون المعجزة الخالدة الباقية إلى أن تقوم الساعة وقد احتوى القرآن الكريم على إشارات دقيقة عن مراحل نمو الجنين فى بطن أمه ـ والتساؤل الآن ما الذى أعلم محمدا بتلك الحقائق ـ التى أنفق الإنسان مئات السنين من التجارب والبحوث ليصل إليها ـ ؟ الجواب ـ هو الله ـ ومن الممكن أن نأخذ من هذه الحقائق دلائل على وحدانية الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وإعجاز القرآن. كل هذه الدلائل تؤخذ من هذه الحقائق القرآنية التى تطابقت معها المعارف الحديثة ولابد أن نشير إلى أن صحيح المنقول لا يتعارض مع صريح المعقول كما أشار إلى ذلك العلماء ؛ وفى مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية وألف كتابه القيم ـ درء تعارض العقل مع النقل ـ حول هذا وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

ولنعرض الآيات ثم نرى استنباط الباحثين المتخصصين لها :

يقول الله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[2]."يقول البرفسور جونسون: القرآن أول مصدر يذكر أطوار الجنين ويصف المظهر الخارجى والعمليات الداخلية المتلاحقة فى الرحم كما أن وصف الرحم بأنه قرار مكين وصف دقيق ـ وقد كشف العلم الكثير من التفاصيل لهذا الوصف الجامع المعبر فالرحم للنطفة ؛ ولمراحل الجنين اللاحقة سكن لمدة تسعة أشهر، وبالرغم من طبيعة الجسم التى تطرد أى جسم خارجى فإن الرحم يأوى الجنين ويغذيه ؛ وللرحم عضلات رابطة تحمى الجنين داخله ؛ ويستجيب الرحم لنمو الجنين ويتمدد بدرجة كبيرة ليتلائم مع نموه فهو قرار له وقد جمع هذا اللفظ الذى

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣.

(٢) سورة المؤمنون الآيات من ١٢ /١٤.

وصف القرآن الكريم به الرحم كل الحقائق التى اكتشفها العلم لبيان مناسبة الرحم لاستقرار الجنين فهو لفظ معبر جامع[(١)]".

وهكذا قدّم القرآن الكريم والسنة النبوية منذ أكثر من ألف عام مصطلحات تصف مراحل الجنين وهى منطبقة تماما مع قواعد تحديد المصطلحات فى ضوء معارفنا الحديثة وفى كل مرحلة قدم لها وصفا دقيقا يشمل المظهر الخارجى وأهم أحداث الخلق فى تلك المرحلة[(٢)]".

ما أثبته العلماء المتخصصون من تطابق المعارف الحديثة مع القرآن الكريم وحقائقه يمكن أن يستدل به لدى الملحدين ؛ والماديين - على النبوة والرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنا نقول على سبيل المثال كما يقرر البروفسور "جونسون" إن التطورات والأحداث التى تكلم عنها القرآن خلال مرحلة النطفة يستحيل كشفها بدون المجاهر الضخمة إذن فمن الذى أعلم محمدًا بها - إنه الله[(٣)]"."إن أخبار القرآن الكريم عن كثير من التعبيرات التى كشف العلم من معانيها ما لم يخطر فى بال أحد من أهل العصر الذى نزل فيه يعد من المعجزات ومن معجزاته أيضا أنه لم يثبت على توالى القرون بعد نزوله شىء قطعى أخبر به - وهذا يدل على أنه من عند الله [(٤)]". وصدق الله العظيم إذ يقول "﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[(٥)]".

المعجزات الحسية:

مع دلالة صدق المعجزة الكبرى الخالدة وهى القرآن الكريم على صدقه صلى الله عليه وسلم فإن هناك معجزات حسية - طلب بعضها المشركون كانشقاق القمر ووقع بعضها للنبى صلى الله عليه وسلم - دون أن يطلبها منه أحد - كحنين الجذع، ونبع

---

(١) انظر مجلة الإعجاز العلمى ص ٢٨/٢٧/٢٦ العدد الأول الطبعة الثانية شوال ١٤١٦ هـ.

(٢) انظر مجلة الإعجاز العلمى ص ٢٨/٢٧/٢٦ العدد الأول الطبعة الثانية شوال ١٤١٦ هـ.

(٣) نفسه ص ٢٩ وانظر فى إعجاز القرآن من الناحية العلمية الإسلام يتحدى وحيد الدين خان، وانظر الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة - موريس بوكاى وانظر توحيد الخالق - للزندانى،

(٤) الوحى المحمدى ص ٣٥٥ /٣٥٦.

(٥) سورة النساء الآية ٨٢.

الماء من بين أصابعه وتسبيح الحصى بين يديه صلى الله عليه وسلم يقول الجوينى فى لمع الأدلة: "ولرسول الله صلى الله عليه وسلم آيات ومعجزات سوى القرآن كانفلاق القمر، وتسبيح الحصى، وإنطاق العجماء، ونبع الماء من بين الأصابع ونحوها[1]." وقد عدد الجرجانى فى شرحه على المواقف نحوا من ستة أنواع من هذه المعجزات الحسية الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم مثل مشى الشجرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومنها. حديث الظبية للنبى وسؤالها له أن يستشفع لها عند الأعرابى لترضع خشفيها، ومنها كلام الناقة للنبى وغير ذلك كثير... ثم يعقب على هذه المعجزات فيقول " كل واحدة من هذه المعجزات المغايرة للقرآن وإن لم تتواتر فالقدر المشترك بينها وهو ثبوت المعجزة متواترا بلا شبهة - وهو كاف لنا فى إثبات النبوة[2]."وذلك لأنها ليست فى وسع أحد من المخلوقات [3]".

ونحن مع صاحب المواقف وشارحها فى أن هذه المعجزات كافية فى وقتها للدلالة على صدق النبى - كدلالة معجزة إبراهيم وموسى،وعيسى عليهم الصلاة والسلام فى الدلالة على نبوتهم - ولكن يبقى الاستدلال بأخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم مع المعجزة الخالدة وهى القرآن لهما قصب السبق فى الدلالة على صدق النبى إن كان ذلك فى زمانه أو بعد عصره وإلى أن تقوم الساعة.

عموم بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وعالمية رسالته

: نصوص الوحيين المثبتة لعموم البعثة:

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يرسل محمدًا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ليبلغ رسالة الله الخاتمة إلى الناس جميعًا والله أعلم حيث يجعل رسالته.

(١) لمع الأدلة ص ١١٢ تحقيق الدكتورة فوقية حسين.

(٢) انظر المواقف لعضد الدين الإيجى وشرحها للسيد الشريف الجرجانى ص ٨ ٢٥٦/٢٥٧/٢٥٨.

(٣) بلوغ المرام للآمدى ٣٤٥.

الآيات والأحاديث الدالة على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1].

هذه الآية تدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم. مبعوث إلى جميع الخلق وقوله يا أيها الناس المراد جنس الناس لا كل فرد وإلا فمعلوم أن غير المكلف لا يدخل تحت الناس. وقد علم بالتواتر من دينه أنه كان مبعوثا إلى كل العالمين[2] وهى تدل ضمنا أنه مبعوث إلى الثقلين وسائر الرسل إلى أقوامهم فقط[3] وإلى هذا المعنى ذهب القاسمى فى محاسن التأويل[4].

ويقول سبحانه " ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[5]. يقول البيضاوى أى لأنذركم يا أهل مكة ومن بلغه إلى يوم القيامة وهو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم - فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد صلى الله عليه وسلم والإنذار ليس مختصا بمن شافههم بالخطاب بل ينذرهم به وينذر من بلغهم القرآن [6] وهذه الآيات وغيرها من السور المكية التى تتحدث عن عموم رسالته صلى الله عليه وسلم تجابه المزورين من أهل الكتاب وغيرهم الذين يزعمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يدور فى خلده وهو بمكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهل هذه القرية من ذيول الحرب التى شنوها قديما على هذا الدين وأهله ومازالوا ماضين فيها [7]

ويقول عز وجل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[8] أى رسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها وإذا شملتهم فقد

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(٢) انظر البرهان للزركشى جـ٢ ص ٢٢٦ والتفسير الكبير للرازى جـ١٥ ص ١٦.

(٣) تفسير البيضاوى ص ٢٥٥.

(٤) محاسن التأويل للقاسمى جـ ٥ ص ٢٧٩ - الناشر دار الفكر ببيروت.

(٥) سورة الأنعام الآية ٢٠.

(٦) تفسير البيضاوى والجواب الصحيح جـ ١ ص ٣٨٣.

(٧) ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٣٧٩ / ١٣٨٠.

(٨) سورة سبأ الآية ٢٨.

كفتهم أن يخرج منها أحد منهم وهى ظاهرة فى الاستدلال على بعثة محمد صلى الله علية وسلم[١] للناس جميعا.

ويقـول سبحـانـه ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٢]

ونحن نذكر هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر وإلا فالآيات كثيرة جدا سواء منها المكى أو المدنى.

وقد وردت أحاديث صحيحة بروايات متعددة تدل على عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم مختصا بذلك دون غيره من الأنبياء والمرسلين جميعا منها :-

ما رواه البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد، من قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة "[٣] وما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون "[٤] يقول ابن حجر وطريق الجمع بين رواية البخارى ورواية مسلم أن يقال لعله صلى الله عليه وسلم اطلع أولا على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقى"[٥] وما رواه الإمام أحمد ومسلم بسنديهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال"والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد، من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار "[٦]ووجه الدلالة أنه لو لم يكن مرسلا إلى جميع الخلق ومنهم اليهود، والنصارى ما حكم على من لم يؤمن منهم برسالته بأنه من أصحاب النار

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ٣ ص ٢٩٠ وروح المعانى جـ٢١/٢٢ ص ١٤٢ـ ١٤٣.

(٢) سورة الفرقان الاية ١.

(٣) فتح البارى جـ١ ص ٤٣٦ كتاب التيمم.

(٤) رواه الإمام مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة شرح النووى جـ٣ ص . دار الفكر بيروت.

(٥) فتح البارى جـ١ ص ٤٣٦.

(٦) رواه الإمام مسلم جـ١ رقم ١٥٣.

ولذلك دعاهم صلى الله عليه وسلم وأقام الحجة عليهم وعلى ملوكهم وأمرائهم بالرسائل التى أرسلها إليهم إن فى داخل الجزيرة العربية أو خارجها.

بشارة الكتب السابقة بمحمد صلى الله عليه وسمل ودلالتها على عموم بعثته :ـ

أخبرنا القرآن الكريم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم. كان معروفا عند أهل الكتاب خاصة أحبارهم ورهبانهم. وأن فريقا منهم يكتمون الحق وهم يعلمون. وأيضا فريق منهم علم الحق فصدع به وآمن وصدق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]

ويقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]

ويقول سبحانه على لسان عيسى﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[3]

هذه الآيات جميعها تقرر أن أهل الكتاب عندهم علم بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن أنبياءهم بشروا به، وعلى الرغم من التحريف الذى لحق بالتوراة والإنجيل إلا أن علماء الإسلام نشطوا فى استنباط بعض الأدلة من كتب اليهود والنصارى تدل على بشارة الأنبياء به ـ وهذه الأدلة يفهم منها عموم بعثته صلى الله عليه وسلم للناس جميعا وتدل على كونه خاتم الأنبياء.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧.

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٠.

(٣) سورة الصف الآية ٦.

ورد فى أشعياء "لأنه يولد لنا ولدًا ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد غيرة رب الجنود تصنع هذا "(1)

هذا النص يشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم وعموم بعثته وختم نبوته من وجوه عدة هى

أولا: قوله "وتكون الرياسة على كتفه"يقصد بها خاتم النبوة الذى على كتف النبى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد جاء فى النسخ القديمة "والشامة على كتفه" والنبى هو الذى رياسته على عاتقيه وبين منكبيه إشارة إلى ختم النبوة وإلى السيف الذى كان يعلقه صلى الله عليه وسلم على عاتقه.

ثانيًا: قوله " أبا أبديا رئيس السلام" وفى النسخ القديمة" أركون السلام" والأركون هو العظيم محمد صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الشريعة الأبدية التى لم تنسخ، وهو الذى أقر السلام فى العالم ونشره.

وقد وردت الفقرة السابقة من هذه البشارة فى طبعة لندن ١٨٢٢ م هكذا ليكثر سلطانه وسلامه ليس له فناء على كرسى داود وعلى مملكته يجلس ليقيمها ويعضدها بالإنصاف والعدل منذ الآن وإلى الأبد."

وهذه الصفة إشارة إلى ختم النبوة لأن الذى سلطانه إلى الأبد لا ينسخ شرعه لعدم الحاجة إلى شرع آخر غيره، ومعنى جلوسه على كرسى داود وراثته بنى إسرائيل ونبوتهم وملكهم ورياستهم ولم يحصل هذا لغير محمد صلى الله عليه وسلم بل هو صريح الدلالة عليه.

ثالثا: إن هذه الأوجه جميعا التى اشتمل عليه النص السابق. صريحة فى محمد صلى الله عليه وسلم فهو الذى كان بين كتفيه خاتم النبوة وهو الذى كان مؤيدًا منصورًا على الأعداء وهو الذى نشر السلام فى الأرض أما المسيح فلم يسلط على

---

(١) سفرا أشعيا الإصحاح التاسع فقرة ٦/ ٧.

أحد - بل تسلط عليه اليهود والرومان ثم إن الأناجيل تنسب للمسيح قوله "لا تظنون أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا"[١]

فهو على حسب هذا القول لم يأت لنشر السلام الذى نشره محمد صلى الله عليه وسلم[٢].ومن ثم تكون هذه النصوص خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم. دالة على نبوته وعموم رسالته. صلى الله عليه وسلم.

حاجة البشرية إلى الرسالة الخاتمة

فى الوقت الذى بعث الله عز وجل فيه محمدا صلى الله عليه وسلم كان العالم فى أمس الحاجة إلى الصوت الأخير - المتمثل فى الإسلام - فقد كانت المجتمعات كلها تتخبط خبط عشواء - وكل شىء فى العالم ينبئ عن الاضطراب ولسان حاله يقول هل من منقذ؟ هل من مخلص؟ ولم يكن شئ سوى الإسلام لينقذ العالم من الاضطراب والبشرية من الهلاك المدمر - فالإسلام الرسالة الخاتمة هو دواء هذا الداء الذى استشرى فى كل مكان - ولم يكن فى منطقة دون منطقة [٣] - كانت البشرية تتطلب إنقاذا سريعا يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الظلم إلى رحابة العدل. وكان هذا المنقذ هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ظهر فى وسط شتات من البشر. اعتقدوا فى أديان - حرفت وبدلت فانقلبت على أعقابها وذهبت ببهاء الدين النازل من عند الله - بعد أن حرفه الأتباع وبدلوه وقد أجاد العلامة أبو الحسن الندوى فى وصف الحالة التى عليها العالم وقت بعثة النبى مظهرًا مدى حاجة البشرية إلى الرسالة الخاتمة يقول "بعث محمد صلى الله عليه وسلم فوجد مجتمعًا هو الصورة المصغرة للعالم - كل شىء فيه فى غير محله أصبح الذئب راعيًا، والخصم الجائر قاضيا، واصبح الصالح فيه محرومًا شقيا بينما المجرم سعيدًا حظيا. رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا وعباد الله أرقاء، ورأى الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى أصبحوا أربابا من دون الله - يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. لذا كان الجميع فى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن، دون

---

(١) إنجيل "متى" ١٠/٢٤..

(٢) انظر بالتفصيل بشرية المسيح ونبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم د/محمد خليل مكاوى الطبعة الأولى ١٩٩٣ ـ مطابع الفرزدق الرياض - ص ٢٦١/٢٦٢/٢٦٣.

(٣) مطلع النور ص ٢٦ للأستاذ العقاد منشورات دار الآداب بيروت ضمن مجموعة العبقريات.

وطن، ولكن خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنسانى وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق أن يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم[١]

هذا الوصف الدقيق يعطى صورة مجملة عما كان عليه العالم الذى علم الله أنه فى أمس الحاجة إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله العزيز الحميد ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته... فكان محمد الرسول وكان الدين ـ هو الإسلام بوسطيته وشموله وعدله ورحمته.

وسوف نعرض وصفًا موجزًا لبعض الأمم وقت الرسالة ـ حتى نتبين مدى الحاجة والضرورة إلى الرسالة الخاتمة للعالم كله.

حال الأمم وقت البعثة:

١ ـ أمة العرب:

ليس هناك أفضل من وصف للعرب قبل الإسلام ـ إلا بأنهم كانوا فى ضلال مبين يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٢]

الضلال يتمثل فى عبادتهم الأصنام والأوثان من دون الله واعتبارهم إياهم شفعاء، وابتغاء الرزق عندهم، ومن وأد للبنات وشرب للخمر ولعب للميسر حتى قال قائلهم

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبق العــازلات بشربــة ... كمـيت متى تعـل بالـمـاء تـزبد

هذا فضلا عن العصبية الجاهلية التى لا تتوقف عند قتال القبائل بعضها لبعض بل قال أحدهم وأحيانًا على بكر أخينا إذا لم نجد سوى بكر أخانا وكثير من أمراض العالم من حولهم حلت بهم إن من الناحية الإجتماعية أو السياسية والاقتصادية ـ خاصة فيما يتلعق بالربا الذى كان شائعا عند العرب خاصة المجاورين منهم لليهود ـ ومعلوم ـ ما يفعله الربا بالجميع، وما يقوم به المرابى من ظلم.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٨٢ بتصرف.

(٢) سورة الجمعة الآية ٢.

كل هذه الأمور كانت تجعل من الرسالة الخاتمة لهذه الأمة ضرورة حتمية ليخرجوا من الظلمات إلى النور.

ب ـ أمة اليهود:

اليهود غلاظ القلوب ديدنهم الفساد فى الأرض يعيشون فى ظل عقيدة لديهم يعاملون الناس على أساس منها ـ تتمثل هذه العقيدة فى كونهم شعب الله المختار وهم فضلا عن ذلك يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه ومجتمعهم مجتمع مغلق لا يدخلون فيه إلا اليهودى لأن الدين والجنسية عندهم شئ واحد [1]

ومعلوم أن شريعتهم التى حرفوها وبدلوها تفرق بين ما هو منهم،وما هو من غيرهم فنراهم يحرمون الربا فيما بينهم [2] بينما يستحلونه مع غيرهم ـ وغير ذلك كثير من خروجهم عن منهج الله عز وجل . ثم هم فى الوقت نفسه كانوا ينتظرون النبى الخاتم وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ـ وذلك قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به فلعنة الله على اليهود، والكافرين.

كل هذه الخصال الذميمة التى اجتمعت فيهم لا تؤهلهم كافة ولا يؤهلهم دينهم الذى حرفوه وبدلوه لأن يكون دينًا عالميًا يقدم الحلول للبشرية ومشكلاتها المعقدة فكان لابد من الرسالة الخاتمة.

جـ ـ أمة النصارى:

كانت النصرانية فى البداية تدعو إلى التوحيد ـ ثم استحالت بعد المسيح عليه السلام إلى ديانة وثنية. وأدى ذلك إلى اختلاف فرقها اختلافًا أودى بالإنقسام الحاصل بين أتباعها إلى اليوم ثم إن النصرانية ليس لها شريعة تنظم المجتمع النصرانى فضلا عن سلطة القساوسة والرهبان الذين يحلون ويحرمون ويأكلون أموال الناس بالباطل ولذلك لا يصلح الدين النصرانى لقيادة البشرية إلى قيام الساعة ـ فكان لابد من الإسلام بعالميته وشموله وصلاحيته لكل زمان ومكان.

---

(١) نحو مجتمع إسلامى ـ سيد قطب ص ١٣٢ دار الشروق.

(٢) سفر التثنية الإصحاح ١٥ الفقرة ٩/٧ وسفر اللاويين الإصحاح الخامس والعشرين الفقرة ٣٩/٣٢ وانظر الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٣٦.

بعض خصائص الرسالة الخاتمة:

بعد أن استعرضنا نماذج من الأمم الموجودة قبل الإسلام نخرج بنتيجة لازمة ـ تتمثل فى أن الكون كله كان فى انتظار رسول. هذا الرسول الخاتم استحقت رسالته الخلود ودعوته العالمية للخصائص التى تميزها عن الأديان السابقة اليهودية، والنصرانية والديانات الوضعية كالفارسية والهندية ـ هذه الخصائص تتمثل فى الأتى:

أولا: التوحيد الخالص.

جاء محمد صلى الله عليه وسلم فدعا إلى التوحيد الخالص ـ الذى نادى به الأنبياء من قبله يقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(١)

ويقول عز وجل ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾(٢)

هذا التوحيد الخالص ـ الذى ينفى الوسائط بين الله عز وجل وبين عباده فلا أصنام، ولا أوثان، ولا أحبار، ولا رهبان يحللون ويحرمون، ويعطون ويمنعون بل الكل يتوجه إلى الله فى عبادته والكل يسأل الله بلا وسيط ولا شفيع، والكل أمام الله سواسية لا فرق لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح.

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام الذى نادى بالأصول العقدية فى دين الله الواحد واستبقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم فى الرسالات السابقة، وأكمل الناقص منها وأتمه ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾(٣)

إنه الدين الكامل التام الذى لا يجزئ الإنسان بين إلهين اثنين إله الخير والنور، وإله الظلمة والشر كما فى المجوسية إنه الدين الذى يفسر للإنسان كل القضايا الكبرى التى تشغل باله فى كل زمان ومكان مثل قضية الألوهية قضية الكون،

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل الآية ـ ٢ ـ

(٣) المائدة الأية ٣ وانظر نحو مجتمع إسلامى ص ١١٠ ـ سيد قطب دار الشروق.

وقضية الإنسان، وقضية النبوة وقضية المصير، وإن نظرة على كل مشكلة من تلك المشكلات فى الأديان السابقة على الإسلام ترينا الفرق الشاسع والبون البعيد بين نظرة الإسلام وكما له وتمامه وبين نظرة هذه الأديان.

إنه الدين الكامل الذى يخاطب كل ملكات الإنسان ويأخذ منها دليلا وشاهدا على صدقه إذا تخلص هذا الإنسان من أهوائه وميوله وتجرد للحق وطلبه إنه الإسلام الذى يخاطب العقل والوجدان والشعور[1]

إنه الدين الذى يطلب من الجميع أن ينضوا تحت لوائه ويأخذوه بشموله فلا يؤمنون ببعضه ويكفرون بالبعض الآخر.

إنه الإسلام الذى ارتضاه الله للبشرية جمعاء ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[2]

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3]

ثانيا: الشريعة العادلة:

استحق الإسلام دون غيره أن يكون الرسالة الخاتمة والشريعة الخالدة العادلة فليست أحكامها لأمة دون أمة، ولا مبنية على أعراف قوم مخصوصين أو عوائد زمن محدود بل هى مبنية على الفطرة التى لا تتغير بالزمان أو المكان. ومن ثم لزم أن تكون تلك الشريعة أحكامها صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان[4]

ثم إن الشريعة التى جاء بها الإسلام جاءت وسطًا مستمدة تعاليمها من الله العليم الخبير. فهى وسط فى التحليل والتحريم بين اليهودية التى أسرفت فى التحريم بسبب الظلم الحاصل من أتباعها يقول تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[5]

(١) الخصائص العامة للإسلام ص ١١٣/١١٤/١١٥.

٢) سورة آل عمران الآية ١٩.

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٤) مبادئ الإسلام للمودودى ص ١٦١.

(٥) سورة النساء الآية ١٦٠/١٦١.

وجاءت وسطا أيضًا بين المسيحية كما آلت إليه والتى أسرفت فى الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص عليها فى التوراة. مع أن الإنجيل صرح بأن المسيح لم يجىء لينقض ناموس التوراة بل جاء ليكمله ومع هذا أعلن "بولس" ومن بعده أتباعه بأن كل شىء طاهر للطاهرين [١]

على العكس من ذلك جاءت الشريعة بمنع الغلو فى الدين وإبطال جعله تعذيبًا للنفس بإباحة الطيبات والزينة بلا إسراف ولا كبرياء يقول تعالى ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢]

والقرآن ينهى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين يقول تعالى **﴿يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم﴾** [٣]

والمسلمون أولى بالنهى من أهل الكتاب ـ لأن الإسلام دين الرحمة واليسر وهو مصداق لقول النبى صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة [٤]

وقد لخص الإمام محمد عبده رحمه الله العدالة التى لم يشهد التاريخ مثالا لها فى قوله "كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها، وتتطلع إلى عدل فى إيمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها، والمبادرة إلى رغيبتها؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت الطبقات بعضها على بعض بغير حق، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين فجاء دين يحدد الحقوق، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأه فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير، وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدًا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت

---

(١) الخصائص العامة للإسلام ص ١٤٦.

(٢) سورة الأعراف الأية ٣١/٣٢.

(٣) سورة النساء الآية ١٧١.

(٤) الوحى المحمدى ـ ص ٢٦٨/٢٦٩ محمد رشيد رضا ـ الطبعة التاسعة المكتب الإسلامى بيروت.

الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه، عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو؟

ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما (١)

هذا جزء يسير من عدالة الشريعة بين المسلم والمسلم، وبينه وبين غير المسلم ولنعرض هذا النموذج الفذ فى ظل الحكم الإسلامى لنبرهن به على عدالة الشريعة التى يحتكم إليها المسلمون من جهة ومن جهة أخرى نرد على العلمانيين وأشباههم الذين يصفون الحكم الإسلامى مما هو منه براء.

يقول السير توماس أرنولد ـ "لما حشد الإمبراطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث أن يركزوا كل نشاطهم فى المعركة التى أحدقت بهم فلما علم بذلك أبو عبيدة أمر بأن يرد على أهل الذمة ما أخذ منهم من جزية وكتب إلى النصارى قائلا إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذ منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم "فما كان من النصارى إلا أن دعوا بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا "ردكم الله علينا ونصركم عليهم" أى على الروم "فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شىء بقى لنا (٢)

وهذا غيض من فيض ـ ملئت به كتب التاريخ وتناقلها المحب والمبغض ـ ونظرا لعدالة هذه الشريعة استحق الإسلام أن يكون الدين الخاتم وأن يكون للعاملين كلهم حيث لا تصلح شريعة اليهود، ولا تعاليم النصارى ولله الحجة البالغة ـ على الناس جميعا.

ثالثا: الشمولية والوسطية:

إن الإسلام كدين خاتم ـ لابد أن يكون شاملا فهو يحكم الإنسان وتصرفاته فى كل حالاته فى خاصة نفسه وفى علاقته بربه وفى صلة الإنسان بأسرته وبمجتمعه الذى يعيش فيه وعلاقات الدول بعضها ببعض. الإسلام ينظم كل هذه العلاقات،

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٨٨ ـ الناشر دار المعارف.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩.

وذلك ببيان الأصول والمبادئ العامة التى تقوم عليها والقواعد والقوانين والنظم التى تحكمها على اختلاف أنواعها [١]

ثم إن الإسلام من ناحية أخرى متسق مع حقائق العلم، ولا اختلاف مع منطق الفكر وأهم ما يميز الإسلام هو الوسطية بين مطالب البدن، ومطالب الروح بين مصالح الدنيا وسعادة الآخرة وهذا معنى جعل أمة الإسلام أمة وسطا.

يقول سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [٢]

فأمة الإسلام أمة وسط بين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس ورهبان النصارى، وبين الذين يغلب عليهم التعالى والمنافع المادية كاليهود [٣]

بهذا الشمول وتلك الوسطية امتاز الإسلام عن غير من الأديان بأن يكون الخاتم وأن يكون للعالم كله وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٤]

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ٥٧/٥٨.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧، سورة البقرة الآية ١٤٣.

(٣) الوحى المحمدى ٢٦٧.

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٧، سورة البقرة الآية ١٤٣.

الفصل الأول

شبه الماديين المنكرين لأصل النبوات والرد عليهم

ويشتمل على :

المبحث الأول : شبه المنكرين للنبوات منذ عهد سيدنا نوح إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والرد عليهم.

المبحث الثانى : شبه البراهمة والرد عليهم.

المبحث الثالث: شبه المنكرين للنبوات فى الفلسفة الحديثة والرد عليهم.

تمهيد:

فى هذا الفصل نتعرض لشبه الماديين المنكرين لأصل النبوات، المستبعدين أن يكون من البشر رسلاً أوحى الله إليهم تبليغ رسالته للناس، وقد قسَّمنا هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:

تناول منكرى النبوات منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام إلى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويعتنى هذا المبحث بجمع الشبهات كلها فى أصول واحدة كاستبعاد المنكرين رسالة البشر وطلبهم أن يكون من الملائكة.

تتبعنا شبهاتهم كما حكاها القرآن الكريم، ثم رددنا عليها، ونفس الشئ فُعل فى وصف المنكرين للرسل بالسحر والجنون، فقد جمعنا أقوال المكذبين ثم فندناها، بما ورد فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية، مستأنسين بأقوال العلماء وفهومهم.

أما المبحث الثانى:

فقد خُصص لمنكرى النبوات من البراهمة، الذين اشتهر عنهم ذلك ومن خلال البحث تبين أن هناك اتجاهًا يذهب إلى أن البراهمة لم يتحدثوا عن النبوات سلبًا أو إيجابًا، وكان هذا الاتجاه سببًا فى أن نبحث عن جذور المسألة، خاصة وأن هناك إجماع من العلماء على أن البراهمة أنكروا النبوات، وتبين لنا أن هناك بعض الملحدين ظهروا فى المجتمع الإسلامى، وأنكروا النبوة، ولكنهم نسبوا الشبهات التى أثاروها فى إنكار النبوة إلى البراهمة وتناقل العلماء شبه الملحدين على أنها شبه للبراهمة وقد ذكرنا شخصيتين من الملحدين هما "ابن الراوندى، وأبو بكر الرازى الطبيب"، وقارنا بين ما قالوه من شبه حول النبوة وما نسب إلى البراهمة فتبين صدق ما انتهينا إليه، خاصة إذا علمنا أن شبهًا كثيرة من التى نسبت إلى البراهمة تدور حول

شرائع الإسلام، ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكان هذا دليلاً آخر على أن أصحاب تلك الشبه هم الملحدون فى المجتمع الإسلامى.

المبحث الثالث:

يدور حول إنكار النبوة فى الفلسفة الحديثة، وتدور شبه الفلاسفة المحدثين حول إنكار كل ما لا يقع تحت الحس والمشاهدة، وهؤلاء هم الفلاسفة الماديون، وقد رددنا عليهم بإثبات إمكانية الوحى فى الفكر الإسلامى وإمكانيته من خلال العلم التجريبى، وهناك فريق آخر من الفلاسفة يعترفون بالألوهية، ولكنهم ينكرون النبوات زعمًا منهم أن العقل يكفى لضبط سير الفرد والمجتمع، ورددنا على هؤلاء بعدم كفاية العقل واستقلاله فى كثير من المسائل، وهذه الأمور هى التى يأتى الأنبياء بها

وختمنا هذا المبحث بتعقيب أوضحنا فيه الأسباب التى أدت إلى إنكار الماديين للنبوة فى العصر الحديث.

المبحث الأول
المنكرون للنبوات منذ عهد سيدنا نوح
إلى عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

الشبهة الأولى : استبعاد منكرى النبوة بشرية الرسل

اتفق المنكرون للنبوات على اختلاف أزمنتهم وألسنتهم وأمكنتهم على إنكار النبوة بناء على حجة واهية تمثلت فى استبعاد أن يكون الرسول من البشر، وطلبوا أن يكون من الملائكة، قال ذلك قوم نوح، يحكى القرآن الكريم ذلك عنهم فى قوله تعالى﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1]

وكرر ذلك قوم صالح ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[2]

وقوم شعيب ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) سورة المؤمنون الآية (٢٤)، وانظر: الآيات (٦٩) وما بعدها من سورة الأعراف.

(٢) سورة الشعراء الآية (١٤١ ـ ١٥٤)..

مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١) استبعادا منهم أن يؤمنوا لبشر مثلهم﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(٢).

وقالها فرعون وملئه عن موسى وهارون عليهما السلام﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾(٣).

ويردد نفس الادعاء كفار قريش فيقولون كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾(٤).

وقد تكرر طلب كفار مكة من الرسول أن يأتى بالملائكة معه يقول تعالى ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(٥)، وقد تكرر هذا من كفار مكة كثيرًا وحكاه عنهم القرآن الكريم (٦).

ويجمع الله شبه الأولين والآخرين من مكذبى الرسل فيقول تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(٧).

وتفرعت بعض الاعتراضات من المكذبين بناء على كون الرسل من البشر.. من هذه الاعتراضات:

أ: كون الرسل تأكل الطعام كسائر الناس:

وقد اعترض بهذه الشبهة قوم هود، يقول تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٧٦-١٨٦)..

(٢) سورة المؤمنون الآية (٣٤).

(٣) سورة المؤمنون الآية (٤٧).

(٤) سورة الأنعام الآية (٨).

(٥) سورة الحجر الآية (٧).

(٦) سورة هود الآية (١٢)، والإسراء الآية (٩٣)، والفرقان الآية (٢١).

(٧) سورة الإسراء الآية (٩٤).

يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾(١).

وكررها المكيون اعتراضًا على الرسول صلى الله عليه وسلم، يحكى القرآن عنهم ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾(٢).

ب: أن الرسل لا مال لهم وأتباعهم من الفقراء:

وهذه الشبهة جادل بها المكذبون رسلهم من أول سيدنا نوح إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يحكى القرآن الكريم عن قوم نوح ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾(٣).

وكررها فرعون لموسى عليه السلام يحكى القرآن ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۞ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾(٤).

وردد تلك الشبهة كفار مكة للرسول صلى الله عليه وسلم .. يقول تعالى﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(٥).

ويصور مقالتهم فى قوله تعالى ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾(٦)

بل إن كفار مكة اشترطوا لكى يؤمنوا بالرسول أن يجعل لهم يومًا وللفقراء يومًا، ولما همَّ الرسول بذلك نزل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم

---

(١) سورة المؤمنون الآية (٣٣ - ٣٤).

(٢) سورة الفرقان الآية (٧).

(٣) سورة هود الآية (٢٧)، والشعراء الآية (١١).

(٤) سورة الزخرف الآية (٥١ - ٥٣) وسورة المؤمنون الآية (٤٥ - ٤٧).

(٥) سورة الزخرف الآية (٣١).

(٦) سورة ص الآية (٨).

بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١)

ج: وصف الرسل بالسحر والجنون:

وهذه الشبهة رددها الكفار مع رسلهم.. فقوم نوح وصفوه بالضلال والجنون، يقول تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾(٢) وكررها قوم هود له.

ووصف فرعون موسى عليه السلام بالجنون﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾(٣)

ووصفه تارة أخرى بالسحر، يقول تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ (٤)

وأكثر كفار مكة من وصف النبى صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون وقول الشعر يقول تعالى ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٥)

ويقول تعالى ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (٦)

ويقول سبحانه ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ (٧)

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٢) وانظر : لباب المنقول فى أسباب النزول للسيوطى ص: ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) سورة القمر الآية (٩) وسورة الأعراف الآية (٥٠ ـ ٦٤).

(٣) سورة الشعراء الآية (٢٧).

(٤) سورة طه الآية (٦٢ ـ ٦٣).

(٥) سورة القلم الآية (٥١) وسورة الطور الآية (٢٩) وسورة الحجر الآية (٦).

(٦) سورة الأنبياء الآية (٣).

(٧) سورة الطور الاية (٣٠).

وأخيرًا يجمع الله شبه المتقدمين والمتأخرين فى وصف المكذبين لرسلهم بالسحر والجنون فيقول تعالى﴿ **كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** ﴾[1]

كانت هذه المقولات هى بعض الشبه التى حالت بين الكفار وبين الإيمان مستبعدين أن يَمُنَ الله على رجل من البشر بالرسالة.

الرد على تلك الشبه:

تناول القرآن الكريم الرد على تلك الشبه وسوف نتتبع طريقة القرآن الكريم فى ذلك مبتدئين بالآتى:

[١] استحالة أن يكون الرسول ملكًا:

لقد رد القرآن الكريم على شبه المنكرين للنبوات استبعادًا منهم أن يرسل الله بشرًا، وبين الله عز وجل أنه لا وجه للاعتراض ولا للعجب حين يرسل الله رسولاً من البشر لأن ذلك هو المناسب لهم ليقع التصديق، لأنه لو كان من غير جنسهم ما استطاعوا أن يتفاهموا معه، ولذلك فإن الله عز وجل يقول: ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ** ﴾[2] أى ما كان لهم أن يتعجبوا من ذلك، وإنما وجب إنكار هذا التعجب لوجوه:

الأول: أنه تعالى مالك الملك والذى يملك له الأمر والنهى والإذن والمنع ولابد من إيصال تلك التكاليف إلى أولئك المكلفين بواسطة بعض العباد وإذا كان الأمر هكذا.. كان إرسال الرسول أمرًا غير ممتنع، بل كان مجوَّزًا فى العقول.

الثانى: أن إرسال الرسل أمر لم تخل أمة منه كما قال تعالى ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ** ﴾[3]

فكيف يُتَعجب منه ، مع أنه قد سبقه النظير.

الثالث: أنه تعالى إنما أرسل إليهم رجلاً وعرفوا نسبه وعرفوا كونه أمينًا بعيدًا عن أنواع التهم والأكاذيب ملازمًا للصدق والعفاف.

---

(١) سورة الذاريات الآية (٥٢).

(٢) سورة يونس الآية (٢).

(٣) سورة الأنبياء الآية (٧).

الرابع: أن هذا التعجب كان موجودًا عند بعثة كل رسول كما فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (١) ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (٢)

إلى قوله تعالى ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ (٣)

وهذا التعجب من إرسال الرسل من البشر كان موجودًا عند المكذبين على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.

يقول الشهر ستانى: "وقع النزاع بين الرسل وبين قومهم فى أن الرسالة لا تتصور من البشر" (٤).

ولذلك يقول سبحانه ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (٥)

وإذا كان المكذبون للرسل قد تعجبوا واستبعدوا أن يرسل الله رسولاً من البشر .. فقد طلبوا أن يكون الرسول من الملائكة أو ينزل مع الرسول ملكًا، وقد بيَّن القرآن الكريم أن طلبهم محال. يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٦)

إن الله عز وجل يبين استحالة نزول الملك لأمور منها:

أ ـ أن إنزال الملك على البشر آية باهرة فبتقدير نزوله فربما لم يؤمنوا وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال كما جرت سنة الله مع السابقين، ولذلك لم ينزل الله إليهم الملك لئلا يستحقوا العذاب.

ب ـ أن نزول الملك على صورته الحقيقية لا يتحمله البشر، ومن ثم فهم لا يطيقون نزوله لأنهم إذا شاهدوه زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون وبيان

---

(١) سورة الأعراف الآية (٦٥ ـ ٦٩).

(٢) سورة الأعراف (٧٣)،

(٣) سورة الأعراف الآية (٦٩)، وانظر الكشاف للزمخشرى (٢/٢٢٤)، والتفسير الكبير للرازى (١٦/٥، ٦).

(٤) نهاية الأقدام للشهر ستانى (ص٤٢٨) بتصرف.

(٥) سورة الإسراء الآية (٩٤).

(٦) سورة الأنعام الآية (٨ ـ ١٠).

ذلك أن الآدمى إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر.

فإن كان الأول - فإن الآدمى لا يبقى حيًا - ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى جبريل غشى عليه.

وإذا كان الثانى - فإن المرئى يكون شخصًا على صورة البشر - كأضياف إبراهيم وحينئذ يقول المكذبون إنه رجل وليس بملك فيعود سؤالهم ولذا قال سبحانه ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [1]

ج: إن ظهور الملك لن يقضى على شبهات المكذبين ولكنه سيفتح شبهات أخرى لديهم، لأن أى معجزة تظهر على يديه يقولون هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والفعل لفعلنا مثل ما فعلته [2].

وقد بين الإمام الرازى الحكمة فى إنزال الملك فى صورة البشر وذلك لأن الجنس إلى الجنس أميل.

وأن البشر لا تطيق رؤية الملك.

ولأن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم فى الإقدام على المعاصى، وكذلك لأن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكًا أو بشرًا [3].

[٢] بشرية الرسول تتفق مع الحكمة من إرسال الرسل:

لا شك أن بعث الرسل من البشر فيه نوع من اليسر ورفع الحرج عن الناس لأن الجنس إلى الجنس أميل وأنه يتكلم بلغتهم كما فى قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾[4]، ثم إن الرسول بطرف البشرية يشاكل نوع الإنسان فى المأكل والمشرب والبيع والشراء وسائر أمور البشر.

---

(١) سورة الأنعام الآية (٩).

(٢) انظر : الكشاف (٢/ ٦ ، ٧) والتفسير الكبير (١٢/ ١٦١ ، ١٦٢).

(٣) التفسير الكبير للرازى (١٢/ ١٦٢).

(٤) انظر : الكشاف (٢/ ٦ ، ٧) والتفسير الكبير (١٢/ ١٦١ ، ١٦٢).

ويشاكل الملائكة بطرف الرسالة فيسبح ويقدس مثلهم ويكون فى قرب من ربه ويشغل كل كيانه بطاعة الله بدنًا وروحًا وقلبًا والمشاكلة يتحقق بسببها منافع كثيرة منها المخاطبة وإدراك ما فى نفوسهم ورغباتهم.

ويقول الشهرستانى: إن الرسل "لهم طرفان بشرية ورسالة، **﴿قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولا﴾**".

فبطرف البشرية يشاكل نوع الإنسان ويشاركه فيأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويحيا ويموت، وبطرف الرسالة يشاكل نوع الملائكة ويشاركه فيسبح ويقدس ويبيت عند ربه يطعمه ويسقيه وتنام عيناه ولا ينام قلبه ويموت قالبه ولا تموت روحه" [1].

ومن ثم جعل الله الإعجاز فى كون الرسل من البشر حال كونهم يأتون بما يأتون ويفعلون إذ لو كانوا ملائكة لقالوا لو كانوا بشرًا ما استطاعوا أن يفعلوا من الكمالات النفسية والطاعات وغيرها، والرسل إنما بعثوا ليقتدى بهم ويأنس الناس بأحوالهم فى العقائد والتشريعات والأخلاق ولو كانت الرسل من الملائكة ما تحققت هذه الفوائد الكثيرة [2].

[٣] الطعام والشراب لا يتنافى مع النبوة:

أما رفض المنكرين للنبوات لرسلهم لأنهم يأكلون ويشربون مثلهم فإن الله عز وجل قضت حكمته أن يكون الأنبياء جميعًا من الرجال وما داموا من جنس الناس فلابد لهم من الطعام والشراب والبيع والشراء وسائر الأمور التى يحتاجون إليها فى معاشهم.

ولذلك فإن رفض المشركين لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لا معنى لها، فهم حين اعترضوا عليه لأنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق كان رد القرآن الكريم عليهم أن محمدًا ليس بدعًا من الرسل فهو كسائر إخوانه من الأنبياء ولما كان بينهم

---

(١) نهاية الإقدام للشهرستانى (ص٤٢٩).

(٢) انظر: النبوات للرازى (ص١٤٨ ـ ١٥٠)، والنبوة والأنبياء للصابونى (١٩ ـ ٢١).

وبين أهل الكتاب مودة أحالهم إليهم، يقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[1].

ويقول تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

ويقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

وهذه الآيات تقرر أمورًا منها:

١ـ أن عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لا يرسل رسولاً إلا من البشر، فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى إلى أن ختم بالرسالات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وطعن كفار مكة بهذا السؤال الركيك طعن قديم فلا يلتفت إليه.

٢ـ أن الله لقن مشركى مكة ليسألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإنما أحالهم عليهم لأن أهل الكتاب كانوا يشايعون المشركين فى معاداة الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردءًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن اليهود والنصارى لابد لهما من تزييف هذه الشبهة وبيان سقوطها.

٣ـ أن الله ما دام قد أحال نزول الملك من السماء ليكون رسولاً واقتضت حكمته أن يكون الرسول من البشر، فإنه نفى عنه ما يكون للملائكة، فإذا كانوا هم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يبيعون ولا يشترون فإن الرسل الذين اصطفاهم الله من البشر يفعلون ذلك، ويفارقون الحياة كما يفارقها سائر البشر، هكذا كان الأنبياء

---

(١) سورة النحل الآية (٤٣).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٧ ـ ٩).

(٣) سورة الفرقان الآية (٢٠).

وعلى قمتهم محمد صلى الله عليه وسلم، الذى كان يأكل ويشرب، ويعاشر زوجاته، وينام ويستيقظ، ومع ذلك كان أكمل نموذج لحياة الإنسان على وجه الأرض بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة [١].

٤ـ ثم إن الطعام والشراب يرتبط به كثير من ثمار الرسالة من حيث أسباب الكسب، وطرائق الأكل والشرب وحاجة البدن إلى ذلك وتنظيم تلك الحاجة.

يذكر الإمام القرطبى فى قوله تعالى "وما أرسلنا قبلك من المرسلين "أن هذه الآية أصل فى تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة، فإن الله تعالى أخبر فى كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال عن داود: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [٢].

وكان الصحابة رضى الله عنهم يتجرون ويحترفون، وفى أموالهم يعملون ومن خالفهم من الكفار يقاتلون وطريقهم فيه الهدى والاهتداء، ثم إن القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين الذى انعقد عليه إجماع المسلمين، وقد خاطب الله موسى بقوله ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [٣]. وقد كان قادرًا على فلق البحر دون ضرب العصا، وكذلك مريم عليها السلام ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [٤]، وقد كان قادرًا على سقوط الرطب دون هز ولا تعب، ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان أو تجاب دعوته أو يكرم بكرامة فى خاصة نفسه أو لأجل غيره ولا تُهَدُّ القواعد الكلية والأمور الجليلة [٥].

[٤] الرد على عدم بعثة الأنبياء من الأغنياء:

من الشبه التى تذرع بها المنكرون للنبوات كون الأنبياء لا مال لهم ولا جاه ومن ثم كانوا يستكثرون أن يرسل الله إليهم رسلاً من الفقراء.. لقد تكرر هذا مع نوح

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازى (٢٠ /٣٦) وانظر الكشاف للزمخشرى (٢ /٥٦٣ ـ ٥٦٤)، وانظر فى ظلال القرآن الكريم (٤/ ٢٣٦٨ ـ ٢٣٦٩).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٨٠).

(٣) سورة الشعراء الآية (٦٣)

(٤) سورة مريم الآية (٢٥)

(٥) انظر : تفسير القرطبى (١٣/ ١٤ ـ١٦).

عليه السلام ومع صالح عليه السلام ومع هود ومع موسى ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونلاحظ فى ردود القرآن الكريم على أصحاب تلك الشبهة وصفهم بالجهل لأنهم لا ينظرون إلا إلى المحسوسات وتقصر أبصارهم وعقولهم أن يرتقوا إلى الأسباب المعنوية من الصلاح والشرف والفضل الذى يمن الله به على من يشاء من عباده، ومن هذا المنطلق كان رد القرآن الكريم على المكذبين من قوم نوح، فحين اعترض قوم نوح على كونه من البشر وأن أتباعه من الفقراء كان قول نوح كما حكاه القرآن الكريم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

وقد أدحض القرآن الكريم فى هذه الآيات شبهاتهم التى تتكرر مع الأنبياء باستمرار:

١ـ أما قولهم "ما نراك إلا بشرًا مثلنا" فهذا جهل منهم لأن الرسول إنما يباشر مهمته المكلف بها بالدليل والبرهان والتثبت والحجة لا الصورة والخلقة، وقد تبين استحالة نزول الملك على البشر وكأن نوحًا عليه السلام يقول لهم إن حصول المساواة فى البشرية لا يمنع من حصول المفارقة فى صفة النبوة والرسالة.

٢ـ لقد بين نوح عليه السلام أنه لا يطلب على تبليغ الدعوة والرسالة مالاً، ولذلك فهو لا ينظر إلى حالة أتباعه من الفقر أو الغنى، فكأنه عليه السلام قال لهم إنكم نظرتم إلى ظواهر الأمور فوجدتمونى فقيرًا وظننتم أنى ما اشتغلت بهذه الحرفة

(١) سورة هود الآيات (٢٨ ـ ٣١).

إلا لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم ، وهذا الظن منكم خطأ فإنى لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا ، لأن أجرى عند الله الذى يثيبنى فى الآخرة.

٣ـ إن قوم نوح نظروا إلى الأسباب الدنيوية ومن ثم فقد استرذلوا المؤمنين لفقرهم وذلك بسبب جهلهم فهم لا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه وسلطان ، وغاب عنهم أن التقدم فى الدنيا لا يقرب أحدًا من الله ولا يرفعه ، فضلاً أن يجعله سببًا فى الاختيار للنبوة والتأهيل لها على أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين فى الآخرة ورفض الدنيا مزهدين فيها مصغرين لشأنها وشأن من أخلد إليها ، فكيف تجعل قلة المال فى الدنيا طعنًا فى النبوة والرسالة[1].؟

وقوم نوح نموذج متكرر باستمرار ، فقد تكرر من فرعون وملئه مع موسى عليه السلام ، وكانت الحجة الواهية فى رفض فرعون لنبوة موسى أنه لا يملك شيئًا ، بينما فرعون له ملك مصر ، وهى شبهة دائمًا يحتج بها الجُهال ، ولذلك لا يلتفت إليها ، ولا يبالى بها ، لأن فرعون بنى شبهته على كثرة ماله وجاهه وسلطانه ، وأخذ من ذلك حجة على أنه يجب أن يكون أفضل من موسى عليه السلام ، وعلى هذا فيمتنع أن يكون موسى رسولاً من عند الله ، وهذه مقدمة فاسدة ، وهى عين المقدمة التى تمسك بها كفار مكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم [2].

لقد تعجب كفار مكة من نزول القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى القرآن عليهم ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾ [3].

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم

(١) انظر: الكشاف (٢ /٢٦٤ ، ٢٦٥)، وانظر : أبو السعود (٣/٢٥ ، ٢٤)، وانظر: التفسير الكبير للرازى (١٧/٢١٢ـ٢١٥).

(٢) التفسير الكبير للرازى (١٧/٢١٢ ـ ٢١٥).

(٣) سورة ص الآية (٨).

بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [1].

فأهل مكة كغيرهم من المكذبين نظروا إلى الاصطفاء بالرسالة على أنه منصب عظيم لا يليق إلا بأحد العظماء من أصحاب الجاه والمال والسلطان، ولقد فند الله شبهتهم ونظرتهم القاصرة من وجوه:

الأول: أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل، فإن مراتب السعادة ثلاثة أعلاها وهى النفسانية وأوسطها هى البدنية وأدناها هى الخارجية من المال والجاه والسلطان، فالمنكرين لنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم عكسوا القضية وظنوا أن أخس المراتب وأدناها هى أشرفها وأعلاها، فلما نظروا ووجدوا المال والجاه والسلطان عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه، وهذا من القياس القاصر، ولو أنهم نظروا إلى دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ما قالوا ما قالوه، وهذا دليل على أنهم تركوا النظر والاستدلال.

الثانى: أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون كامل القدرة وعظيم الجود. وهذا لا ينبغى إلا لله سبحانه وتعالى، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة والجود لم يتوقف كونه واهبًا لهذه النعمة على كون الموهوب له غنيًا أو فقيرًا، فتلك مقاييس لا ينظر الله إليها، ثم إنه تعالى لما أوقع التفاوت فى مناصب الدنيا لا لسبب سابق فلماذا يستبعد عليه أن يوقع التفاوت بين الناس فى منصب النبوة.

الثالث: أن الله هو الذى يقسم الأرزاق بين الناس، لأن له ملك السموات والأرض، ولا يملك أحد منهم تغيير واقع الناس وتفاوتهم فيما بينهم فى الغنى والفقر، وذلك مشاهد وإذا كانوا عاجزين عن هذا، فعجزهم أظهر أن يرتقوا فى الأسباب ويصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحى على من يختارون.

الرابع: أن الله وصفهم بالجهل، وتعجب من اعتراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة، والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها والمتولين لقسمة رحمة

---

(١) سورة الزخرف الآيات (٣٠-٣٣).

الله التى لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته وضرب لهم مثلاً فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خاصة أمرهم، وما يصلحهم فى دنياهم، وأن الله هو الذى قسم معيشتهم وقدرها، ودبر أحوالهم، ولو تركهم لأنفسهم وولاهم تدبير أمورهم لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا فى تدبير المعيشة الدنية فى الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك فى تدبير أمور الدين، الذى هو رحمة الله الكبرى، ورأفته العظمى، وهم حين نصبوا أنفسهم مدبرين لأمر النبوة، فهذا جهل منهم لأن الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون [1].

الخامس: أن الأنبياء وإن اتصف بعضهم بالفقر وعدم الملك الواسع إلا أنهم كانوا من ذوى الأعراق فى النسب، وهو الأمر الهام الذى يجب أن يتوافر فى الذين يصطفيهم الله لهذا الأمر، ولهذا لم يوجه إلى واحد منهم طعنًا فى نسبه وأصله، غير أنه يجب أن نشير إلى أن الأنبياء لم يكونوا جميعًا فقراء، بل كان منهم الغنى مثل داود وسليمان وأيوب، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن فقيرًا، بل كان يملك ويتصدق بما يملكه، فهو يملك ويجود بما عنده ثم يملك وينفق وهكذا.

لقد تبين لنا أن منطق المكذبين للأنبياء واحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى عهده وبعد عهده، فهم لا ينظرون إلى الدعوة وسموها ولا ينظرون إلى صاحبها وصدقه وشرفه، ولكن المقياس عندهم من هو؟ وكم يملك؟ ولقد عبر القرآن الكريم عن مسلك المتقدمين والمتأخرين فى رفضهم للأنبياء فى قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [2].

وقال عز وجل﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [3].

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى (٣/٢٦١ ـ ٢٦٢، ٢٦٢، ٤٨٥ ـ ٤٨٦) والتفسير الكبير للرازى (٢٦ / ١٧٩ ـ ١٨٠)، (٧/٢٠٩).

(٢) سورة سبأ الآية (٣٤ ، ٣٥).

(٣) سورة الزخرف الآيات (٢٣ ، ٢٤).

إن المترفين الذين أترفتهم النعمة وأبطرتهم لا يحبون إلا الشهوات والملاهى، ويبغضون تحمل المشاق فى طلب الحق. إن موقفهم قصة معادة وموقف مكرور على مر الدهور، إنه الترف يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها، فلا ترى الهداية، وخص المترفين بالذكر لأن المترفين تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ومن ثم قيل إن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة [1].

[٥] النبوة اصطفاء:

إن المكذبين للأنبياء حين يعترضون على الرسل بأنهم من البشر يبين الله أن الرسالة اصطفاء وهبة لا دخل للبشر فيها.

يقول تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [2].

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [3].

ويقول سبحانه﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [4].

ويقول عز وجل﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [5].

---

(١) انظر : الكشاف (٣/٤٨٤)، والتفسير الكبير (٢٧/٢٠٦)، وفى ظلال القرآن (٥/٢٩١٠).

(٢) سورة الحج الآية (٧٥).

(٣) سورة آل عمران الآية (٣٣).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٢٤).

(٥) سورة إبراهيم الآية (١١).

وهذه الآيات جميعها تقرر أمورًا هامة فى اصطفاء الله تعالى من خلقه عبادًا يكونوا رسلاً بينه وبين خلقه، ويبنى الاصطفاء على علم الله وحده، فهو جل جلاله أعلم بفطنة العقل ورجاحته، وقوة النفس وصفائها وشدة الإرادة والعزم، وقوة الصبر والتحمل، والطلاقة فى اللفظ والمنطق وكلها أمور يحتاج إليها النبى.

وقد ذكر العلماء وجوهًا كثيرة توافرت فى الذين اصطفاهم الله منها:

١ـ أن الأنبياء عليهم السلام لابد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم فى القوى الجسمانية والقوى الروحانية، وقد كان أنبياء الله متميزين عن غيرهم بالقوى الجسمانية كقوى الأبصار ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان مخصوصًا بكمال هذه الصفة، يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: "زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها"، وإبراهيم عليه السلام أيضًا قد تميز بهذه الصفة الجسمانية، فلقد قوى الله بصره حتى شاهد جميع الملكوت من الأعلى إلى الأسفل.

وكذلك كان الأنبياء متميزين بقوى السماع، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع أطيط السماء، ونظير هذا ما حدث لسيدنا سليمان فقد أسمعه الله كلام النمل، ومنها قوة الشم كما فى حق يعقوب عليه السلام فقد أحس بريح يوسف من مسيرة أيام، ومنها قوة الذوق كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم حين قال "إن هذه الذراع تخبرنى أنها مسمومة". هذا فى القوى الظاهرة.

أما القوى الباطنة فمنها قوة الحفظ كما فى قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [(١)].

٢ـ ولقد تميز الأنبياء عن غيرهم فى القوى الروحانية العقلية، فقد خصهم الله بالنفوس الزكية، وأيدهم بالقوى القدسية، وجعل نفوسهم مخالفة بماهيتها لسائر النفوس، ومن لوازم نفوسهم الكمال فى الذكاء والفطنة، والحرية، والاستعلاء، والترفع عن الجسمانيات والشهوات، فإذا كانت الروح فى غاية الصفاء والشرف، وكان البدن فى غاية النقاء والطهارة، وكان الفاعل القابل فى غاية الكمال، ومن ثم كانت الآثار فى غاية القوة والشرف والصفاء[(٢)].

---

(١) سورة الأعلى (٦) وانظر التفسير الكبير للرازى (٨/٢٣، ٢٢).

(٢) التفسير الكبير الرازى (٨/٢٣).

٣ـ إن الله كما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة، ونقاء الجوهر، وصفاء العنصر وطيب الأخلاق، وكرم الأعراق، ويرقيهم مرتبة مرتبة، حتى إذا بلغ الواحد منهم أشده وبلغ أربعين سنة، وكملت قوته النفسانية، وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكًا وأنزل عليهم كتابًا، فكانوا يتلقون من جانب، ويلقون إلى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب الحق فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه [(١)].

٤ـ إن الاصطفاء للرسالة منة وعطية من الله، ولذلك لما اعترض المكذبون على الرسل بأنهم بشر مثلهم ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [(٢)].

وهذا ما يعرف بمجاراة الخصم ليعثر فإن الرسل سلموا لهم بأنهم بشر والمعنى ما ادعيتم من كوننا بشر حق لا ننكره ولكن هذا لا ينافى أن يمن الله علينا بالرسالة [(٣)].

يذكر الرازى أن هذه الآية استنبط منها حكماء الإسلام أن الإنسان ما لم يكن فى نفسه وبدنه مخصوصًا بخواص شريفة وعلوية قدسية، فإنه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوة له.

وأما أهل السنة والجماعة فقد ذهبوا إلى أن حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الإنسان عن سائر الناس بمزيد إشراق نفسانى وقوة قدسية، واحتجوا بقوله تعالى ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ،وأجاب الحكماء أن الانبياء لم يذكروا فضائلهم النفسية والجسدية تواضعًا منهم [(٤)].

---

(١) نهاية الإقدام (ص ٤٦٣) وأبو السعود (٤ /٣٤).

(٢) سورة إبراهيم الآية (١١).

(٣) الإتقان فى علوم القرآن (٢/١٣٧).

(٤) التفسير الكبير للرازى (١٩/٩٦)

والذى يميل إليه الباحث أن الله علم صفاء نفوس هؤلاء البشر واستعدادهم للخير فأصطفاهم وهذا يظهر جليًا فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أنه قبل البعثة كان يتحنث فى غار حراء ولم يهم بشىء مما كان يفعله أهل الجاهلية.

[٦] الرد على اتهام الرسل بالسحر والجنون:

إن المنكرين للرسل على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم قد وصفوا الرسل بالسحر أو الجنون كما ذكر ذلك القرآن الكريم ﴿ **كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** ﴾ [١].

والشىء الذى يلفت النظر هو : لماذا تُهْتَمَىّ السحر والجنون بالذات؟

إن الأسباب التى جعلتهم يرمون الأنبياء بالسحر والجنون تتلخص فى عدم فهمهم استيعاب الوحى بالطرق الإدراكية كالحس والعقل، لأن إتيان الرسل بأمور يعجز العقل عن الوصول إليها جعل المنكرين يلجأون إلى تفسير ما يأتى به النبى بالسحر وجعلهم فى الوقت ذاته يتهمون النبى بالجنون وأنه يتخيل أمورًا لا تخضع لمنطق الحس والعقل.

وقد صاغ هذه الأسباب ابن تيمية فى قوله "إنه ما جاء نبى صادق قط إلا قيل فيه إنه ساحر أو مجنون، وذلك لأن الرسول يأتى بما يخالف عاداتهم ويفعل ما يرونه غير نافع ويترك ما يرونه نافعًا، وهذا فعل المجنون، فإن المجنون فاسد العلم والقصد، ومن كان مبلغه من العلم إرادة الحياة الدنيا كان عنده من ترك ذلك وطلب ما لا يعلمه مجنونًا، ثم إن النبى مع هذا يأتى بأمور خارجة عن قدرة الناس من إعلام بالغيوب وأمور خارقة لعاداتهم فيقولون هو ساحر" [٢].

ودعوى المكذبين للأنبياء لا دليل عليها، لأن الله اصطفى الأنبياء على خلقه جميعًا، وحاشا لله أن يختار نبيًا فيه صفة منفرة [٣]، فضلاً عن السحر والجنون،

---

(١) سورة الذاريات الآية (٥٢).

(٢) النبوان لابن تيمية (ص٢٧٠).

(٣) انظر "نهاية الأقدام للشهر ستانى (ص ٤٤٤، ٤٤٥) ومطالع الأنظار على طوالع الأنوار (ص٤٣١ ، ٤٣٢).

ولكن حين يعجز المنكرون عن تقديم حجة واضحة لرفض الحق الذى جاء به الأنبياء، بصفات منفرة ليحيلوا بينهم وبين المدعوين. وغالبًا ما يكون المكذبون من أصحاب السلطان والجاه، ولهم الكلمة النافذة التى تؤثر عادة فى الناس، لما يملكون من وسائل شتى للتأثير.

ولعل ما حدث مع سيدنا موسى عليه السلام من فرعون وقومه مع السحرة قبل وبعد أن يؤمنوا خير دليل على ما نقول. فقد وصف فرعون موسى بالجنون تارة، وبالسحر تارة أخرى. ويأتى الوصف بإحدى هاتين الصفتين بعد العجز الكامل من فرعون وقومه أمام موسى ومنطقه الواضح.

لقد وصف فرعون موسى عليه السلام بالجنون بعد أن أسمعه موسى ما لم يسمعه من قبل، يقول تعالى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [(١)].

إن سؤال فرعون ليس عن ماهية الرب، ولكنه سؤال استفهام استنكارى، كأنه استنكر أن يكون للعالمين ربًا سواه، ومن ثم فَسَّر موسى العالمين بأنها السموات والأرض وما بينهما، ليحسم مادة التزوير لئلا يحمل العالمين على ما تحت مملكته، فلما غاظته هذه الإجابة المؤكدة من موسى بأنه رب العالمين، وصف موسى بأنه مجنون ليس له عقل فيما يدعو إليه، وذلك ليصرف الناس عن دعواه وضمن الوصف بالسخرية أن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون، سماه رسولاً بطريق الاستهزاء وأضافه إلى المخاطبين ترفعًا من أن يكون مرسلاً إليه [(٢)].

ونلاحظ أن وصف فرعون لموسى كان صرفًا فقط للناس عن سماعه وليس وراء ذلك اعتقاد لدى فرعون بأنه مجنون على الحقيقة، وإلا لما واصل الاستماع وطلب من موسى أن يأتى بآية إن كان من الصادقين.

(١) سورة الشعراء الآيات (٢٣ ـ ٢٩).
(٢) انظر: ابن كثير (٣/٣٣٣، ٢٣٢)، والكشاف (٣/١٠٨، ١٠٩)، وأبو السعود (٣/١٥٩).

أما الوصف الثانى لموسى بأنه ساحر وأن معجزته ما هى إلا ضرب من السحر، فقد جاء بعد عجزه أن يفهم طبيعة المعجزة، وأن البشر لا يمكن أن يأتوا بمثلها، ولذلك لما جاء السحرة أمام فرعون وغلبوا وآمنوا، لم يقتنع فرعون ولكنه ضم السحرة إلى موسى فى مؤامرة مزعومة حسب زعمه.. يقول الله سبحانه ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝١١٥ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝١١٦ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [(١)].

إن السحرة قد اكتشفوا وتأكدوا أن الذى جاء به موسى عليه السلام ليس من جنس السحر الذى يعلمونه ويشتغلون به، ولذلك آمنوا إيمانًا جازمًا، وهذا دليل على صدق دعوى موسى عليه السلام [(٢)].

يقول صاحب المواقف : "إن المعجز يظهر فى كل زمان من جنس ما يغلب على أهله ويبلغون فيه الغاية القصوى فيقفون فيه على الحد المعتاد، حتى إذا شاهدوا ماهو خارج عن حد الصناعة علموا أنه من عند الله وذلك كالسحر فى زمن موسى، ولما علم السحرة أن حد السحر تخييل وتوهيم ثم رأوا عصاه انقلبت ثعبانًا يتلقف سحرهم الذى كانوا يأفكونه علموا أنه خارج عن حد السحر، فآمنوا به، وفرعون لقصوره كان يظن أنه كبيرهم الذى علمهم السحر" [(٣)].

ولو كان الذى أتى به موسى سحرًا ما آمن به السحرة، لأنهم قد بلغوا مبلغًا كبيرًا فى حقيقة السحر واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى عليه السلام خارجة عن حد السحر، علموا أنه من المعجزات الإلهية لا من جنس

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١١٣ ـ ١٢٢)

(٢) النبوات لابن تيمية (ص٢١).

(٣) المواقف (ص٣٥٤).

التمويهات البشرية، ولو أنهم كانوا يقولون لعله أكمل منا فى علم السحر فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين فى السحر، فلأجل كمالهم فى ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان "[١]. وعن عكرمة أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء "[٢].

فإذا ما انتقلنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنه قد وُصف من قومه بالجنون وقول الشعر، ولقد نفى الله عز وجل ذلك كله، لأن ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم من الوحى ينفى عنه كل اتهام، وإذا كان ساحرًا فهل الساحر يعجز عن أن يسحر من أمامه؟ كلا، فوجود أهل مكة واتهامهم للرسول بالسحر ينفى عنه أنه ساحر، وأما اتهامهم للرسول بقول الشعر فحجة عليهم لا لهم، لأن جزيرة العرب مليئة بالشعراء، فلمَ لمْ يأت واحد منهم بمثل ما جاء به الرسول؟ ولذلك فإن القرآن الكريم ينفى كل هذه الاتهامات عن النبى فيقول سبحانه ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ "[٣]. ويقول ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ "[٤].

ثم يبين الفرق بين الشاعر والكاهن وبين النبى فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ "[٥].

فالفرق واضح بين الكهان الذين يتلقون من الشياطين الكذب والبهتان وبين كلام محمد صلى الله عليه وسلم الذى لا يكذب أبدًا، والفرق واضح أيضًا بين كلام الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون وبين دعوة محمد صلى الله عليه وسلم الذى يتحمل بسببها كل المشاق والآلام، ومع ذلك لم يتركها حتى بعد أن عرض عليه

---

(١) التفسير الكبير للرازى (٢٠٦/١٤).
(٢) الكشاف للزمخشرى (١١٣/٣).
(٣) سورة يس الآية (٦٩).
(٤) سورة الطور الآية (٢٩).
(٥) سورة الشعراء الآيات (٢٢١ ـ ٢٢٦).

أهل مكة المال والجاه والسلطان، فمنهج الرسول غير منهج الكهان وغير منهج الشعراء [١].

هذا النفى من الله تعالى يظهر إلى أى حد كان أهل مكة يفترون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أن الرسول ليس بساحر ولا كاهن ولا شاعر ولا مجنون.

فقد أورد ابن كثير فى تفسيره وابن هشام فى سيرته: أن عتبة بن ربيعة فاوض الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض عليه المال والسيادة، والملك ، حتى إذا فرغ عتبة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسمع منى قال " افعل فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه" ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت إليها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد. قال: ورائى أنى قد سمعت قوله، والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم" [٢].

فهذا اعتراف من أحد صناديد الكفر يعلن أمام قريش وهم الذين أرسلوه ليتفاوض مع النبى صلى الله عليه وسلم أن محمدًا ليس بساحر ولا بكاهن ولا

---

(١) ظلال القرآن (٥/ ٢٢٦٠ ، ٢٢٦١).

(٢) السيرة النبوة لابن هشام (١/ ٢٩٢ ، ٢٩٣) وابن كثير (٤/ ٩١).

بشاعر وتكرر هذا الموقف كثيرًا من المشركين إلا أن البعض منهم كان يتراجع تحت التأثير الاجتماعى ويصف الرسول بما يصفه به الكفار كالوليد بن المغيرة الذى أثنى على القرآن الكريم وانتهى أنه خبر أشعار العرب ونفث السحر وعقده، وعلم سجع الكهان، وهذيان المجانين، فما قول محمد صلى الله عليه وسلم بواحد منها، ولكنه نكص على عقبيه تحت ضغط المشركين وقال ما حكاه القرآن الكريم عنه فى سورة المدثر ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ ﴾[1].

ووصف الرسول بالسحر والجنون وقول الشعر ليس عن اعتقاد داخلى يقينى منهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم موصوف بهذه الأوصاف، وإنما قال مشركو مكة هذا حقدًا وحسدًا وصرفًا للناس عن أن يستمعوا إلى الرسول، وهم أول من يعترفون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبرأ من هذه الأوصاف، وقد كانوا معترفين بذلك إذا خلو ببعضهم كما حدث لكثير من المشركين مثل الأخنس ابن شريق وخلافه.

الفرق بين النبى والساحر والكاهن:

وقد أورد الإمام ابن تيمية أكثر من عشرة وجوه للفرق بين النبى والساحر والكاهن والشاعر، نذكر منها :

١- أن ما يخبر به الأنبياء لابد وأن يكون صدقًا وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكهنة فإنه لابد فيه من الكذب.

٢- أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ولا تفعل إلا الحق وأما هؤلاء فلابد لهم من الظلم.

٣- أن آيات الأنبياء ولو قدر أنها تنال بالاكتساب فهى إنما تنال بالعبادة والطاعة، أما ما يأتى به السحرة والكهان فإن الخوارق تحصل لهم مع الكذب والإثم.

---

(١) سورة المدثر الآيات (١٨ - ٢٥).

٤ـ إن ما يأتى به الأنبياء ليس مقدورًا لأحد من الإنس والجن. أما ما يأتى به السحرة والمشركون لا يخرج عن كونه مقدورًا للإنس والجن.

٥ـ أن النبى قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله وحده والعمل على طاعته، وأما السحرة والكهان فكلهم يشركون مع تنوعهم ويكذبون بما جاء به الأنبياء [١].

(١) انظر: النبوات لابن تيمية (ص٢٧٩ ـ ٢٨٣) بتصرف.

الشبهة الثانية
التشدد والتعنت فى طلب الآيات والمعجزات الحسية

لقد سيطر على المنكرين للنبوات الاتجاه المادى، وذلك أثناء حديثهم مع الرسل، وكان هذا الاتجاه عامًا فى الأمم قبل أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واحتلت المطالب المادية من كفار مكة مكانًا كبيرًا من تعنتهم ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، وسوف نعرض لثلاثة نماذج مما طلبه المنكرون من أنبيائهم مؤكدين أن طلب المعجزة لم يكن بهدف التصديق لو تحققت، وإنما كان تعنتًا وعنادًا واستكبارًا من المكذبين لأنبيائهم وعلى امتداد تاريخ الرسل لم نجد قومًا نجوا من العذاب إلا القليل بعد تخصيص ما يريدون مما يدل على أن المعجزة تأتى عندما يكون الأنبياء "قد فرغوا من محاولات شتى للإعلان عن دعوتهم وللإقناع العقلى والتذكير والموعظة والإنذار، ولما لم تؤت هذه الطرق نتائجها الواسعة أو تعسف المدعوون فى إنكارهم أو طلبوا آية إعجازية، فإن الداعية من الرسل يضطر لتقديمها" (١) إذا أراد الله ذلك.

والدليل على ذلك النماذج التى نعرضها:

أولاً: صالح عليه السلام مع قومه:

لقد أرسل الله نبيه صالحًا إلى ثمود وكما هى طريقة الأنبياء فإنه دعاهم إلى عبادة الله وحده وذكرهم بنعمه عليهم، ولكنهم أعرضوا عنه، وطلبوا منه إن كان من الصادقين أن يأتيهم بآية .

وقد عرض القرآن الكريم قصة صالح مع قومه فى كثير من الآيات (٢).

---

(١) الدعوة والإنسان (ص٣٩٧).

(٢) سورة الأعراف الآية (٧٤ ـ ٧٩)، سورة هود الآية (٦١ ـ ٦٨)، سورة الحجر الآية (٨٠ ـ ٨٤)، سورة الشعراء الآية (١٤١ ـ ١٥٩)، سورة النمل الآية (٤٥ ـ ٥٣) وسورة فصلت الآية (١٧ ـ ١٨)، وسورة الذاريات الآية (٤٣ ـ ٤٥)، وسورة النجم الآية (٥٠ ـ ٥١)، وسورة القمر (٢٣ ـ ٣٢) وسورة الحاقة الآية (٤ ، ٥)، وسورة الشمس الآية (١١ ـ ١٥).

ويظهر من كثرة حديث القرآن الكريم عن قوم صالح مدى تعنتهم واستكبارهم، وسوف نكتفى بعرض شبهتهم ورد القرآن الكريم عليها فى سورتى الأعراف والشعراء.

يقول الله تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1].

لقد طلبوا آية ولم يؤمنوا بما دعاهم إليه من الإيمان بالله وحده والتذكير بنعم الله عليهم.

ويروى المفسرون أن قوم صالح طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة كبيرة من صخرة معينة، فأخذ عليهم المواثيق والعهود أنه إن فعل ذلك وحقق لهم ما يطلبون أن يؤمنوا، فأعطوه العهود والمواثيق على ذلك فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت الصخرة كما تتمخض الحامل ثم انفرجت خرجت الناقة من وسطها، وقد ذكر القرآن الكريم أن هذه الناقة وكونها آية من آيات الله على الناس أن يعلموا أنها من عند الله.

يقول تعالى﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ

---

(١) سورة الشعراء الآيات (١٤٧١ ـ ١٥٤).

صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [1].

وقد ذكر العلماء كون الناقة آية من آيات الله وذلك لأنها كان لها شرب يوم معلوم وكان القوم كلهم يشربون فى يوم وكانت تحلب لهم اللبن فى اليوم الذى لا يشربون فيه الماء، وكأنها كانت تصب اللبن صبًا، وكل هذه الأشياء تجعلها آية من آيات الله، وكما يقول الرازى "اعلم أن القرآن قد دل على أن فيها آية فأما ذكر أنها كانت آية من أى الوجوه فهو غير مذكور والحاصل أنها كانت معجزة من وجه لا محالة" [2].

وبعد أن ظهرت الناقة هل آمن قوم صالح؟ إن فريقًا من قوم صالح قد آمن، لكن الأغلبية كانت من المستكبرين، عَتَوْ عن أمر ربهم وعقروا الناقة التى نُهوا عن أن يمسوها بسوء، مجرد سوء فضلاً عن ذبحها وأصروا على ظلمهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، وهنا بعد تلك المعجزة الحسية لم يمهلهم الله فترة طويلة ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [3]، وهذه المدة لم تكن للاستتابة، وإنما كانت زيادة فى ألم العذاب والضغط النفسى الشديد الحاصل بسبب الوعيد بالعذاب، وقد كان [4].

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [5].

---

(١) سورة الأعراف الآيات (٧٣ ـ ٧٩).

(٢) التفسير الكبير الرازى (١٤/١٦٣)، وانظر ص (١٦١ ـ ١٦٤).

(٣) سورة هود الآية (٦٥).

(٤) الدعوة والإنسان (ص ٤٠٠.

(٥) سورة هود الآية (٦٦ ـ ٦٧) ـ وانظر فى هلاكهم الأعراف الآية (٧٧) والحجر الآية (٨٣ ـ ٨٤) والشعراء الآية (١٥٨ ـ ١٥٩)، والنحل الآية (٥١ ـ ٥٣) وفصلت الآية (١٧)، والذاريات الآية (٤٤ ـ ٤٥)، والقمر الآية (٣١ ـ ٣٢) الحاقة الآية (٥٩.

إن قوم صالح نموذج للمعاندين الذين يطلبون الآيات الحسية، وبالرغم من أن تلك الآيات تحدث دويًا ضخمًا فى خرقها للعادة كناقة صالح إلا أنها لا تزيدهم إلا تكذيبًا وطغيانًا، وهذا هو شأن المنكرين حتى بعد أن يروا الآيات.

ثانيًا: موسى عليه السلام مع فرعون وملئه:

المعروف أن طبيعة دعوة موسى عليه السلام استدلالية إعجازية ولكنها تهتم بالمعجزة فى الإقناع إلى حد كبير [1]، وكان الله يعلم طبيعة فرعون وقومه ولهذا جاءت دعوة موسى على هذا النحو، ولكن لا ينبغى أن نفهم من هذا أن موسى عليه السلام يسارع بتقديم المعجزة فى أول دعوته، كلا، إن القرآن الكريم يبين لنا أن موسى عليه السلام ما عرض الآية التى أيده الله بها إلا بعد أن استفرغ جهده فى تقديم الأدلة إلى فرعون على أنه موحى إليه من رب العالمين، حتى ليشعرنا القرآن أن الإصرار على طلب الآية كان من فرعون بعد أن لمح موسى إلى ما معه.

ولنعرض هذه الآيات من سورة الشعراء: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [2].

والملاحظ من الآيات أن موسى بدا بالاستدلال المقنع ولما تأكد له عدم صبر فرعون على هذا اللون الاستدلالى وظهر له أن فرعون سيستخدم القوة التى لا قبل لموسى بها، لجأ إلى الإعجاز كعنصر مسكت لفرعون ومبهر له فى الوقت نفسه [3]، ولكن الله عز وجل أظهر فرعون شأنه كشأن المكذبين من قبله طالبًا المعجزة [4] "قال فأت به إن كنت من الصادقين" وبعد أن ظهرت الآية على يد موسى عليه السلام ماذا

---

(١) الدعوة والإنسان (ص ٤٠٠).
(٢) سورة الشعراء الآيات (٢٣ ـ ٣٣)
(٣) انظر بتصرف: الدعوة والإنسان (ص ٤٠٠).
(٤) انظر سورة الأعراف الآيات (١٠٦ ـ ١٢٦).

كان الموقف؟ الإصرار والعناد والاستكبار وعدم الإيمان، حتى السحرة الذين جاء بهم فرعون من كل فج لما آمنوا بموسى كان العقاب من جانب فرعون موجهًا للمؤمنين، لا فرق بين سحرة ولا إسرائيليين، بل أكثر من ذلك لما ابتلاهم الله عز وجل بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ماذا قالوا؟

يحكى القرآن عنهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[1].

إنهم فى كل مرة كانوا ينقضون عهدهم ويعودون إلى ما كانوا فيه قبل رفع العذاب عنهم، لقد جمع الله الآيات كلها كأنما جاءتهم مرة واحدة وكأنما وقت النكث مرة واحدة، ذلك أن التجارب كانت كلها واحدة وكانت نهايتها واحدة[2].

وكأن فرعون وقومه مثال يضربه القرآن الكريم لكل الماديين الذين يطلبون الآيات المشاهدة كشرط للإيمان، يعرض القرآن الكريم الآيات التى جاء بها موسى إلى فرعون كما يقول الله تعالى ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[3].

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾[4].

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف الآيات(١٣٣ ـ ١٣٦).

(٢) انظر فى ظلال القرآن الكريم (٣ / ١٣٥٨ ، ١٣٥٩).

(٣) سورة الزخرف الآية (٤٨).

(٤) سورة الإسراء الآية (١٠١).

(٥) سورة طه الآية (٥٦).

ويقـول عـز وجـل ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤ ﴾ [1].

ويقول ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٦ ﴾ [2].

كل هذه الآيات الحسية المشاهدة ما زادتهم إلا نفورًا وعلواً واستكبارًا، ومن هنا يظهر لنا بوضوح أن الذين يطلبون المعجزات الحسية ليسوا بمؤمنين ولا بمصدقين وهم فى طلبهم للآيات الحسية كأنما يطلبون العذاب من الله ويستعجلونه.

ثالثًا: طلب المشركين المعجزات الحسية من النبى صلى الله عليه وسلم:

لقد غالى أهل مكة فى طلب المعجزات الحسية من الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصل بهم الغلو أن طلبوا إن كان الرسول صادقًا والقرآن حقًا أن ينزل الله بهم العذاب، وكانوا من السفاهة بحيث لم يطلبوا كما طلب اليهود من موسى أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها، أو يطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم كما طلب الحواريون من عيسى مائدة من السماء.. كلا. لم يطلبوا طعامًا أو شرابًا وإنما طلبوا حجارة من السماء أو عذابًا أليمًا كما حكى القرآن الكريم عنهم ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢ ﴾ [3].

لقد طلبوا مطالب متعددة معظمها ينحصر فى مطالب مادية، ومتع حسية منها:

أ- طلب الجنات والقصور:

يقول الله تعالى مصورًا مطالب كفار مكة: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا

---

(١) سورة النمل الآية (١٣ - ١٤).

(٢) سورة القصص الآية (٣٦) وانظر سورة الزخرف الآية (٤٧، ٤٨).

(٣) سورة الأنفال الآية (٣٢)

تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

والجواب على هذه الشبهة من جهتين:

الجهة الأولى:

جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه الجهة فيها يؤكد النبى صلى الله عليه وسلم أنه بشر ومن جهة بشريته فهو لا يملك أن يأتى بشىء، يقول تعالى﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[2].

وفى هذا بيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يملك شيئاً إلا بمشيئة الله فهو نذير والرسل كلهم هذا شأنهم.

يقول تعالى ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[3].

والمعنى أن الأنبياء جاءوا إلى أممهم ورسول الله واحد منهم بآيات أيدهم الله بها وهى كافية وحجة قاطعة على صدقهم، أما ما يطلبه أقوام الأنبياء فهى أمور زائدة إن شاء أظهرها تفضلاً ومنة، وإن شاء منعها فالأمر بداية ونهاية لله وحده، ولذلك قال الرسول تعقيبًا على تعنت أهل مكة سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً[4].

يقول الدكتور "دراز" : لقد أسىء فهم الرسل حين نظر إليهم على أنهم صناع معجزات، إن القرآن لا يرى فى المعجزة عملاً بشريًا إنما المعجزة تتم بقدرة الله وليس

---

(١) سورةالأعراف/ الآية ١٨٨

(٢) انظر : لباب المنقول فى أسباب النزول (ص٢١٤ ـ ٢١٨)، بهامش تفسير الجلالين.

(٣) سورة إبراهيم الآية (١١).

(٤) انظر: الرازى (٩٧/١٩) والقرطبى (٣٤٨/٩، ٣٤٧) وأصول الدين للبغدادى (ص١٧٧، ١٧٦).

لهؤلاء الرسل أكثر مما لدى قومهم من حق فى ادعاء اختيار المعجزات أو استبدالها بغيرها، إن الله عز وجل يعطى سلطانه لمن يشاء وعلى أى شكل يريد بحسب تقديره سبحانه لأوفق طريقة تناسب هذه العصر أو ذاك"[١].

الجهة الثانية:

جهة الله عز وجل، إن الله سبحانه وتعالى يرد على المشركين ويسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝** ﴾[٢].

أى أن الله قادر على أن يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم خيراً مما طلبوه، ويبين أنهم لم يطلبوا ذلك من أجل الإيمان، ولكن تكذيبًا وتعنتًا، وإن عدم إيمانهم بيوم القيامة هو الذى يجعلهم يتجرأون على الله وعليك، ولذا فإن الساعة موعدهم يذوقون السعير فيها[٣]، والقرآن الكريم لا يلبى طلبهم لأن الله يعلم أن المعجزة الحسية إذا ظهرت فلن يصدقوا[٤]، ولذلك فمن الأولى ألا تظهر.

ب: طلب تحول الجبال ذهباً:

تعنت أهل مكة فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبًا فقد أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أتت قريش اليهود فقالوا بم جاءكم موسى من الآيات؟ قالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى؟ قالوا كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا فدعا ربه فنزلت الآية **﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾** فليتفكروا فيها[٥]. فليس مجرد أن يطلبوا يحقق الله مرادهم لأنه الأعلم بما

---

(١) مدخل إلى القرآن (ص٨١، ٨٠).

(٢) سورة الفرقان الآية (١٠ ، ١١).

(٣) انظر ابن كثير (٣/٣١٠).

(٤) الأسس المنهجية (ص٦٨ ، ٦٩).

(٥) لباب المنقول فى أسباب النزول (ص ١٠١) بهامش الجلالين.

تحدثه تلك المعجزات فى نفوسهم، إنهم قد صمموا على عدم الإيمان ومهما ظهرت لهم من المعجزات الحسية فلن يزيدهم إلا إصرارًا وعنادًا.

وقوع المعجزات على يد الرسول صلى الله عليه وسلم يزيد المكذبين عنادًا:

ونحن حين نعرض لمواقف المشركين وتعنتهم فى طلب المعجزات الحسية وعدم استجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، نود أن نوضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ظهرت على يديه معجزات أحدثت دويًا كبيرًا، منها على سبيل المثال

انشاق القمر الذى سميت فى القرآن الكريم باسمة، يقول سبحانه: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ ﴾[١].

وقد أورد البخارى حديث انشقاق القمر فى روايات متعددة منها رواية ابن مسعود قال: "انشق القمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا"[٢].

ووردت روايات انشقاق القمر من طريق أبى معمر عن عبد الله ومن طرق عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس ومن طريق عن أنس[٣]، وهى روايات مؤكدة تفيد بأن القمر انشق بالفعل لا كما ذهب البعض إلى أن القمر سينشق، لأن المفسرين بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق الذى رواه جمع من الصحابة[٤].

وهذه المعجزة التى تميز بها رسول الله عن غيره من الأنبياء، إذ كانت معجزاتهم كلها أرضية وهى شاهد صدق على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن القرآن قد نزل بها" ولو لم يقع ذلك لقال له أعداؤه متى كان هذا؟

هى معجزة سماوية وكانت المعجزات من قبله أرضية"[٥].

(١) سورة القمر الآيات (١ - ٣).
(٢) فتح البارى (٨/٥٠٠).
(٣) فتح البارى (٨/٥٠١).
(٤) التفسير الكبير للرازى (٢٩/٢٨).
(٥) أصول الدين للبغدادى (١٨٢).

إن المشركين كان عليهم أن يفكروا جيدًا فى هذه المعجزة التى لو حدثت من البشر لاختل نظام العالم بأسره، ولكن لأن الله تعالى هو الذى شقه لم يحدث أى خلل وعاد والتأم، ومع ذلك كله بعد أن طلبوا من الرسول أن يشق القمر لهم، وتحقق ما طلبوا وكانت النتيجة الإعراض كما هى عادتهم[١]. وزادوا مع الإعراض وصف ما يأتى به الرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر المستمر.

وليس انشقاق القمر إلا إحدى المعجزات الحسية الكثيرة التى ظهرت على يد النبى صلى الله عليه وسلم مثل: نبع الماء من بين أصابعه وذلك أعجب من خروج الماء من الحجر لموسى عليه السلام، ومنها تسبيح الحصى فى يده، ومنها مجىء الشجرة بأمره ورجوعها، ومنها حنين الجذع، ومنها كلام الضب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهادته أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢].

وهذه المعجزات" وإن لم يتواتر كل واحد منها فالقدر المشترك بينها متواتر لأن مجموع الرواة بلغوا حد التواتر والقدر المشترك متحقق فى رواية المجموع فيكون متواترًا" [٣].

ويُعد القرآن الكريم هو المعجزة الباقية ولم يثبت أن أحدًا عارضه لأنه لو عورض لتواتر سيما والخصوم أكثر من حصى البطحاء وأحرص الناس على إشاعة ما يبطل دعواه[٤].

ولكن مع هذه المعجزات الباهرة لم يقتنع الذين طلبوها مما يجعلنا نذهب إلى أن المعجزة لا تهدى من لم تكن له هداية من بصيرته واستقامة تفكيره، فمن مرت به آيات الأرض والسماء ولم ينظر إليها ولم يعرف منها دينًا خيرًا من دين الوثنية والتعطيل، فلن تزيده الآية الخارقة إلا ضلالاً على ضلال [٥].

وسنبين الأسباب الحقيقية لإنكار المكذبين للأنبياء، فى التعقيب التالى.

---

(١) الدعوة والإنسان (٤٠٤ ، ٤٠٥) والتفسير الكبير للرازى (٢٩/ ٢٨، ٢٩).

(٢) أصول الدين للبغدادى (ص١٨٢)، وانظر نهاية الإقدام للشهرستانى (ص ٤١٩ ،٤٢٠)، وانظر دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهانى (ص٣٢٠-٣٢٤).

(٣) مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار للبيضاوى (ص ٤٢٣ ، ٤٢٤).

(٤) المواقف (٤٣٩ ، ٤٤٠).

(٥) التفكير فريضة إسلامية (ص٨٨).

تعقيب

الأسباب التى أدت إلى إنكار المكذبين بعد ظهور المعجزات على يد الأنبياء والمرسلين

بعد عرضنا لتعنت المنكرين للنبوات وطلبهم المعجزات الحسية نلاحظ الآتى:

(١) أن المنكرين حين طلبوا الآيات من الأنبياء كان ذلك على سبيل التعجيز لهم من ناحية أخرى أنهم كانوا ينتهزون أدنى خلل يحدث فى تحقيق ما يطلبون من الآيات ليأخذوا ذلك على الأنبياء، وكان الله دائمًا يقف مع أنبيائه ورسله فيما يؤيدهم به من آيات.

(٢) على الرغم من الشطط فى الطلب إلا أن كثيرًا من الأنبياء قد استجابوا لمطالب أقوامهم إما طمعًا فى إيمانهم أو تأييدًا لرسالتهم حتى لا يقال إنهم عجزوا عن مطلب إعجازى كان من الممكن أن يؤدى إلى إيمان أقوامهم،

(٣) أن الغالب على الأقوام الإصرار على الإنكار بعد ظهور المعجزات كما حدث مع قوم سيدنا صالح ومع موسى عليه السلام من فرعون وملئه إذا استثنينا السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام، كما حدث مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فبالرغم من انشقاق القمر فإن الذين طلبوا انشقاقه لم يؤمنوا.

(٤) أن القرآن الكريم قد بينَّ أن طلب المكذبين للآيات هو من باب العناد والاستكبار.

يقول سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [(١)]. ويقول سبحانه ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝ ﴾ [(٢)].

إن القرآن الكريم يعرض نموذجًا بشريًا للمكابرة والاستغلاق سواء قبل رسالة خاتم النبيين سيدنا محمد أو فى عهده أو بعده والآيات التى عرضناها مفادها: أن الله

---

(١) سورة الأنعام الآية (١١١).

(٢) سورة الحجر الآية (١٤ . ١٥).

لو حقق للمنكرين ما يطلبون وأنزل إليهم الملائكة بالفعل وأحيا لهم الأموات فكلموهم بصدق النبى المرسل إليهم ما آمنوا إلا أن يشاء الله، أى لن تكون الآيات هى السبب فى إيمانهم.

بل إن القرآن يبين أن الله لو فتح للمكذبين بابًا من السماء فعرجوا فيه وشاهدوا الملائكة على طبيعتهم وعبادتهم، لصرف المكذبون وجوههم وقالوا إن السحرة سحرونا، وجعلونا نشاهد هذه الأشياء.

وفى تصوير القرآن للمنكرين على هذا النحو يظهر مدى المكابرة والعناد المتأصل فى نفوسهم فلا جدوى مع هؤلاء، فالذى ينقصهم ليست الدلائل على صدق الرسل، وإنما يمنعهم المكابرة والجحود، وهذه الآيات وإن كانت خاصة بمشركى مكة إلا أنها تصور بوضوح ما كان عليه السابقون﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[1].

(٥) أشار القرآن الكريم والسنة النبوية إلى أن الحقد والحسد كانا من الأسباب الرئيسة لتكذيب المنكرين للنبوات، فبالنسبة للأنبياء قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وردت الإشارة إلى فرعون وملئه مع سيدنا موسى عليه السلام.

يقول عز وجل ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[2].

يقول أبو السعود: "مبصرة اسم فاعل أطلق على المفعول إشعاراً بأنها لفرط وضوحها وإنارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو مبصرة كل من ينظر إليها ويتأمل ولكنهم جحدوا بها وقد "استيقنتها" أى علمتها علمًا يقينيًا، "ظلمًا" حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرًا"[3].

---

(١) سور البقرة الآية (١١٨) وانظر التفسير الكبير للرازى (١٩/١٦٧) وتفسير ابن كثير (٢/١٦٥)، وظلال القرآن (٤/٢١٢٩/٢١٣٠)..

(٢) سورة النمل الآية (١٣ ، ١٤).

(٣) أبو السعود (٣/١٨٩).

وقد مر بنا قول فرعون وقومه عن موسى وهارون ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

أما ما فعله الكفار مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأن القرآن وفى شأن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو يؤكد :أن الحسد والحقد كانا من أهم الأسباب التى منعت الكفار من الإيمان بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والنص الذى أورده ابن هشام فى السيرة النبوية يقدم الدلالة على حقد الكفار وحسدهم للنبى صلى الله عليه وسلم.

يروى ابن هشام فى السيرة أن نفراً من المشركين كانوا يستمعون القرآن كل منهم يجلس فى مكان لا يعلم عنه صاحبه شيئًا وبعد انتهائهم من استماع القرآن الكريم كانوا يتقابلون فى الطريق واستمر هذا لمدة ثلاثة أيام فى كل مرة يتعاهدون على عدم العودة، وكان هؤلاء النفر "أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق"، وفى آخر مرة كانوا يستمعون القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم ذهب الأخنس بن شريق إلى أبى جهل فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، فقام الأخنس وتركه[2].

"﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة المؤمنون الآية (٤٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢١٠ ، ٢١١) والبداية والنهاية (٣/ ٧١).

(٣) سورة البقرة الآية (٦ ، ٧).

الشبهة الثالثة

زعم الكفار أن القرآن ليس من عند الله

لقد افترى كفار مكة على الله حين زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن الكريم من بشر، هذا فضلاً عن وصفهم القرآن بأنه أساطير الأولين، وسوف نعرض طرفًا من هذه الشبهة ونؤجل التفصيلات فى الرد عليها عند مناقشة المستشرقين الذين رموا الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو ما رماه به المشركون خاصة فى شأن القرآن الكريم.

يعرض القرآن الكريم شبهة منكرى النبوات فى شأن تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن من بشر ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[1].

ويقول سبحانه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾[2].

ويقول تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

هذا فضلا عن وصفهم الرسول بما لا يليق به كالسحر والجنون وقول الشعر وكل ما ينفر منه.

الرد على شبهة تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن من بشر

أولاً: الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتعلم القرآن من بشر:

يبين الله عز وجل المغالطة التى يرتكبها المشركون فى مقولتهم إذ أنهم حين يزعمون أن الرسول يتلقى القرآن من بشر، لم يتهموا الرسول بأنه يتعلم من أحد الفصحاء البلغاء أرباب البيان، وما أكثرهم فى جزيرة العرب، ولكن طمس الله على قلوبهم ورموا النبى صلى الله عليه وسلم بأنه يتعلم من غلام أعجمى ليس بعربى.

---

(١) سورة النحل الآية (١٠٣).

(٢) سورة الفرقان الآية (٤ .٥)

(٣) سورة الطور الآية (٣٣ ، ٣٤)

يقول ابن هشام: "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصرانى يقال له جبير عبد لِبَنىَ الحضرمى فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمد كثيرًا مما يأتى به جبير النصرانى غلام بنى الحضرمى فأنزل الله تعالى فى قولهم ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ "[1].

وقد تعددت الروايات فى تحديد اسم الذى يزعمون أن الرسول تلقى القرآن منه [2]، وإن العقل لا يصدق كيف أن غلامًا أعجميًا لا يستطيع النطق بالعربية إلا بما يحتاج إليه من كلام فى أمور حياته كيف يعلم محمدًا القرآن على فصاحته وبلاغته.

وكما يقول ابن كثير: "لا يقول هذا من له أدنى مُسكة من عقل" [3].

ولذلك كذبهم الله وبين أن ما يقولونه افتراء على الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [4].

وكذبهم واضح من وجوه:

الأول : أنهم لا يؤمنون بآيات الله وهم كافرون، ولذلك فكلام العدو لايؤخذ به.

الثانى: لو صح أن النبى صلى الله عليه وسلم تعلم من هذا الأعجمى فهل التعلم يحصل من جلسة أو جلستين ولكنه يحتاج إلى أعوام طوال، ولو حدث هذا لاشتهر عن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يشتهر هذا فدل على أنه لم يكن من الأساس تعلم أو تلق من الرسول صلى الله عليه وسلم على يد هذا الأعجمى.

---

(١) سورة النحل الآية (١٠٣)وانظر ابن هشام (١/ ٣٧١ ، ٣٧٢)

(٢) انظر : لباب المنقول (ص١٩٤) وانظر ابن كثير (٢/ ٥٨٦ ، ٥٨٧).

(٣) ابن كثير (٢/ ٥٨٦).

(٤) سورة النحل الآية (١٠٤ ، ١٠٥)

الثالث: على فرض أن محمدًا تعلم القرآن من هذا الأعجمى، فَلِمَ لمْ يتعلم كفار مكة منه كما تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ويأتوا بمثل القرآن خاصة وقد تحداهم الله بذلك فعجزوا ولجأوا إلى الحرب والقتال(١).

ومن هنا يتضح الكذب والافتراء من المشركين حين أعجزتهم الحجة فأتوا بمثل هذه الكلمات الركيكة التى تبطل نفسها بنفسها.

لا حجة لأهل مكة فى دعواهم أن القرآن يفتريه محمد ﷺ:

أما قولهم كما حكى القرآن عنهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾(٢). فإن الله عز وجل وصف قولهم هذا بالظلم والزور، والظلم فيه واضح وهو جعلهم العربى يتلقى من الأعجمى الرومى كلامًا عربيًا أعجز بفصاحته فصحاء العرب وبلغائه والحق الذى يجب التصديق به وما يوافق العقل ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣).

أما دعواهم بأن القرآن مفترى فإن الله عز وجل يتحداهم بنفس منطقهم إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفترى القرآن فإن عليهم أن يأتوا بسورة منه، وحين يعجزون فهم الذين يقولون بالإفك والبهتان، يقول تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾(٤).

ويقول ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٥).

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازى (١١٨/٢، ١١٩)، وانظر الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص٥٨٦) وما بعدها.

(٢) سورة الفرقان الآية (٤).

(٣) سورة الفرقان الآية (٦)، وانظر: الكشاف للزمخشرى (٨٢/٣)، وانظر: أبو السعود (١٢٠/٣، ١٢١).

(٤) سورة يونس الآية (٣٨، ٣٩).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣)،

إن الله عز وجل تحداهم وما زال التحدى قائمًا أبد الدهر وهو أغرب تحد فى التاريخ كله إذ لم يجرؤ أحد أن يتحدى القرآن فيأتى بسورة مثله [١].

وهذا التحدى جزء من مراتب متعددة تحداهم الله عز وجل بها.

يقول الرازى : إن مراتب تحدى رسول الله ﷺ بالقرآن ستة:

أولها: أنه تحداهم بكل القرآن كما قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٢].

وثانيها: أنه صلى الله عليه وسلم تحداهم بعشر سور، قال تعالى ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [٣].

وثالثها: أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[٤].

ورابعها: أنه تحداهم بحديث مثله فقال ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾[٥].

وخامسها: أن فى تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتى بالمعارضة رجل يساوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدم التلمذ والتعلم ثم فى سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أى إنسان سواء تعلم العلوم أو لم يتعلمها.

وسادسها: أن فى المراتب المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز أن يستعين البعض بالبعض فى الإيتان بهذه المعارضة كما قال ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [٦]. وهاهنا آخر المراتب، فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى إثبات أن القرآن معجز".

---

(١) انظر الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص٥٨٦) وما بعدها، وانظر: الإسلام يتحدى (ص١٠٨ - ١١٠).

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٨).

(٣) سورة هود / ١٣.

(٤) سور البقرة الآية (٢٣).

(٥) سورة الطور الآية (٣٤).

(٦) سورة هود / ١٣.

هذا الإثبات الذى تناولته تلك الآيات يؤكد أن القرآن من عند الله وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يفتريه من عند نفسه، وهو الذى كان يرد على المشركين بأنه لا يستطيع أن يبدل شيئًا مما نزل عليه، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [١].

وإن اقتراحهم بإبدال قرآن بقرآن فيه:

أولاً: أنه من عندك وأنك قادر على مثله فأبدل مكانه بآخر.

ثانيًا: أنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجو منه أو لا يهلكه فيسخروا منه ويجعلوا التبديل حجة عليه [٢].

وكانت الحجة قاطعة من النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يملك أن يبدل شيئًا من تلقاء نفسه إذ أنه يتبع ما يوحى إليه والله عز وجل يقول ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [٣].

ورد النبى صلى الله عليه وسلم واضح "لو شاء الله ما تلوته عليكم" إذ أن ذلك بمشيئة الله، ثم يبين لهم أنه لبث فيهم عمرًا قبل الرسالة فى فترة الصبا والشباب والكهولة ولم يعرفوا عنه شيئًا من هذا القرآن ولم يكن موصوفًا بعلم وبيان فيتهموه باختراعه أفلا تعقلون فتعلمون أنى لا أقدر ولا أحد يقدر أن يأتى بمثل هذا القرآن، لأنه من عند الله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [٤].

---

(١) سورة يونس الآية (١٥ ، ١٦).
(٢) الكشاف للزمخشرى بتصرف (٢/٢٢٨ ، ٢٢٩).
(٣) سورة الحاقة الآية (٤٤ ـ ٤٩)
(٤) سورة النساء الآية (٨٢).
وانظر الكشاف (٢/٢٢٩، ٢٢٨)، وانظر: القرطبى (٨/٣١٨ ـ ٣٢١).

المبحث الثانى

البراهمة وإنكارهم النبوات

تمهيد:

البراهمة طائفة فى الهند ينسبون إلى "برهما " أو "برهمن" [١]. الذى حاز الشرف فى العلم والطهارة فى زعمهم وهم يعترفون بالألوهية [٢]. ولكنهم يشركون مع الله غيره وقد شاع بين مفكرى الإسلام القدامى إنكار البراهمة للنبوات.

وسوف نورد آراء العلماء فى ذلك:

الاتجاه الأول:

يقرر أن البراهمة ينكرون النبوات أصلاً وعلى هذا علماء الكلام وأصحاب كتب الفرق والمقالات، كابن حزم فى الفصل، والشهرستانى فى الملل والنحل، والباقلانى فى التمهيد، والجوينى فى الإرشاد، وابن تيمية فى النبوات وغيرهم كثير [٣]، يذهبون جميعهم إلى أن البراهمة ينكرون النبوات.

الاتجاه الثانى:

نجده عند البيرونى الذى ذهب إلى الهند واختلط بأهلها ودرس أحوالهم وعلومهم ومذاهبهم وهو يشير إلى أن البراهمة" وقع الاستغناء عندهم عن الرسل فى باب الشرع والعبادة وإن وقعت الحاجة إليهم فى المصالح البرية" [٤].

فالبيرونى لا يرى أن البراهمة أنكروا النبوات أصلاً، وإنما أنكروا أن تأتى الرسل بشرائع لأن العقل كاف فى ذلك، أما المصالح المُعاشية فهم لا ينكرون الرسل فيها.

---

(١) الفلسفة الشرقية (ص١٠٢).

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة (ص٤٠).

(٣) انظر: الفصل لابن حزم (٦٣/١، ٦٤)، التمهيد للباقلانى (ص١٣١ ـ ١٤٣)، والإرشاد للجوينى (ص ٤٠٢ ـ٤١٢) وأصول الدين للبغدادى (١٥٥، ١٥٤)، والعقيدة النظامية (ص ٦٤، ٦٣)، طوالع الأنوار للبيضاوى (ص١٦٥، ١٦٦)، والأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص٥٦٣)، ومطالع الأنظار للإصفهانى (ص٤٢٥ ـ ٤٢٧) والفرق بين الفرق للبغدادى (ص٣٥٥).

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى (ص٧٥).

الاتجاه الثالث:

لأحد الباحثين المحدثين ويذهب إلى أن "الهندوكية" البراهمة، لا يؤمنون بأن دينهم قد أنزله الله عن طريق الوحى إلى أنبيائه، فهم لا يرون الحاجة إلى ذلك مطلقًا لأن الله يتجسد فى الشخصيات الإنسانية لهداية البشرية إلى طريق الرشاد، فلا حاجة إذن إلى وحى من الله ولا إلى الأنبياء، ولعل هذا هو السبب فى أننا لا نجد فى أى كتاب لهم أو فى أسفارهم الدينية أى إشارة فى إثبات عقيدة النبوة أو نفيها بل هم فى الحقيقة لم يفكروا فيها مطلقًا [1]. ويرد الباحث الإجماع الحاصل عند علماء الكلام من أن البراهمة ينكرون النبوات إلى "أن هذا الإجماع لم يحصل من أربابه بسبب عدم اتصالهم اتصالاً مباشرًا بالمذاهب الهندية وكتبها المعتمدة، بل ربما كان اعتماد كل لاحق منهم على سابقه هو مرد ذلك"[2].

وبالفعل قد أشار البيرونى" إلى عدم الدقة فى تصوير آراء أهل الهند، فهو يرى أن كتب المقالات، وما عمل فى الآراء والديانات آراء منحولة بعضها عن بعض منقول ومغلوط مخلوط غير مهذب" [3].

رأى الباحث:

وأمام هذه الاتجاهات الثلاثة أرى أن البراهمة أنكرت الرسل فيما يتعلق بالشرائع فقط، واكتفوا بأحكام العقل فى ذلك ، ثم تلقف آراء البراهمة بعض الملحدين فى المجتمع الإسلامى طعنوا فى الإسلام فنقحوا شبه البراهمة وصاغوها صياغة تشكك المسلمين فى دينهم، ولعل هذا هو السبب الحقيقى من وجهة نظرنا فى الطعون التى نُسبت إلى الشريعة فيما يتعلق بالحج ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة والانحناء فى الركوع والسجود، وهذه الطعون لا تتصور من البراهمة وإنما الذى صاغها بعض الملاحدة فى المجتمع الإسلامى، وقصدوا من وراء ذلك تشكيك المسلمين فى دينهم وشريعتهم التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه

---

(١) الوحى فى المذاهب المختلفة (١٤٩ ، ١٥٠) رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية أصول الدين بالقاهرة،

(٢) الوحى فى المذاهب المختلفة (ص١٥٢).

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة (ص١٤ ، ١٥).

الشبهات صاغها الملاحدة ثم نسبوها إلى البراهمة وشاعت بين العلماء وتناقلوها على أنها شبه للبراهمة.

نقول هذا نظرًا لأن هناك فتنة ظهرت فى القرن الثالث الهجرى تنكر النبوات وتطعن فى القرآن الكريم وسائر معجزات الأنبياء، وقد اشتهر من الملاحدة الذين أنكروا النبوات ابن الراوندى [١]، وأبو بكر بن الرازى الطبيب [٢].

وبالرجوع إلى ما نسب إليهما نجد أن هناك تشابهًا كبيرًا بين ما نقل عنهما وبين شبهات البراهمة التى ذكرها علماء الكلام وردوا عليها، وقد ألفت بعض الكتب فى الرد عليهما مثل كتاب الانتصار [٣]. للخياط الذى رد على ابن الراوندى فى كتابيه التاج والزمردة، ومثل كتاب أعلام النبوة [٤]. لأبى حاتم الرازى الذى يرد فيه على أبى بكر بن الرازى فى طعنه على النبوات.

وقد أورد الدكتور "عبد الرحمن بدوى" فى كتابه تاريخ الإلحاد نصوصًا عن ابن الراوندى من كتابه الزمردة الذى ينسب إلى البراهمة، وفيه "أنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه على خلقه وأنه هو الذى يعرف به الرب ونعمه، ومن أجله صح الأمر والنهى، والترغيب والترهيب، فإذا كان الرسول يأتى مؤكدًا لما فيه من التحسين والتقبيح والإيجاب والحظر، فساقط عنا النظر فى حجته وإجابة دعوته، إذ قد غنينا بما فى العقل عنه والإرسال (أى بعثة الرسل) على هذا الوجه خطأ وإن كان ما يأتى به الرسول بخلاف ما فى العقل من التحسين والتقبيح والإطلاق والحظر فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته" [٥].

---

(١) هو: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ولا يعرف بالضبط تاريخ وفاته ولكن الأغلب أنه توفى فى أخريات القرن الثالث الهجرى، اتصل بالمعتزلة ثم خرج عليهم ولازم الملحدين واتصل بهم اتصالا وثيقًا.

انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٩٥، ٩٤) بتصرف يسير.

(٢) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى أحد المشهورين فى علم المنطق والهندسة، وألف كتبا كثيرة فى صناعة الطب وانتحل مذاهب خبيثة وتوفى من ستة وعشرين وثلثمائة وقيل سنة أربع وستين وثلثمائة. انظر: تاريخ الحكماء للقفطى (ص٢٧١).

(٣) انظر: الانتصار (ص٢، ١٥٥، ١٧٢، ١٧٣) لأبى الحسين عبد الرحيم بن عثمان الخياط المعتزلى، تحقيق الدكتور نبرج، طبعة دار قابس.

(٤) رسائل الرازى الفلسفية (ص٢٩٥).

(٥) تاريخ الإلحاد فى الإسلام (ص٨٠).

هذا الطعن إن صح من ابن الراوندى على الأنبياء جميعًا، فإن هناك طعون على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن ما يقال عن بلاغة القرآن وإعجازه فليس "بالأمر الخارق للعادة لأنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من قبائل العرب أفصح من القبائل كلها وتكون عدة من تلك القبيلة أفصح من بقية تلك القبيلة ويكون واحد من تلك العدة أفصح من سائر أفراد تلك العدة"[(١)].

وسوف نرى أن شبه البراهمة التى يرد عليها علماء الكلام لا تخرج عن كلام ابن الراوندى إن صحت نسبته إليه.

أما الرازى الطبيب فهو يذهب إلى أن العقل هو الحجة القاطعة، فكل شىء تابع له ولا يكون تابعًا لشىء، يقول عن العقل" إنه أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا وبالجملة فإنه الشىء الذى لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين، وإذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلالته فحقيق علينا أن لا نحطه عن رتبته ولا ننزله عن درجته ولا نجعله وهو الحاكم محكومًا عليه ولا وهو الإمَام مأمومًا ولا وهو المتبوع تابعًا بل نرجع فى الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه ونمضيها على إمضائه ونوقفها على إيقافه" [(٢)].

هذا النص استنبط منه كثير من الباحثين أنه ينكر فيه النبوة من طرف خفى [(٣)]، إلا أن هناك مناظرة تمت بين أبى حاتم الرازى صاحب كتاب أعلام النبوة وبين الرازى الطبيب المشار إليه، أوردها المستشرق" كراوس "فى نهاية كتاب" الرسائل الفلسفية" للرازى، وفى هذه المناظرة نجد النص صريحًا من الرازى الطبيب فى إنكار النبوة، وسوف نعرض أهم شبهات البراهمة فى إنكار النبوة وهى شبهات مختلطة بين الملحدين فى المجتمع الإسلامى والبراهمة الآخرين هم الذين نسبت إليهم تلك الشبهة على نحو ما بينا.

---

(١) تاريخ الإلحاد (ص٨١)، وانظر إعجاز القرآن للرافعى (ص٢٠٥ ـ٢٠٨) الطبعة السابعة ١٩٦١ م المكتبة التجارية.

(٢) رسائل فلسفية لبى بكر محمد بن زكريا الرازى جمعها وصححها ب. كراوسى ج ١ كلية الآداب سنة ١٩٣٩م.

(٣) فى الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية (ص٤٤٧، ٤٤٨).

الشبهة الأولى
كفاية العقل عن النبوة

تقوم هذه الشبهة على أن العقل وحده كاف لتصريف أمور البشر لأن الرسل إن جاءت بما تقره العقول ففى العقول الكفاية ولا حاجة إذن للأنبياء، وإن جاء الأنبياء بأمور تخالف العقل فلا يكون مقبولاً أن يكلف الناس بما لا تقبله عقولهم، لأن ذلك خروج عن حد الإنسانية[1].

وشىء آخر يتعلق بالله على زعمهم إذ أنه لا يجوز فى حكمة الله أن يرسل الرسل إلى من يعلم أنه يكفر به ويشتمه ويرد قوله ويستوجب على ذلك العقاب الأليم[2].

الرد على هذه الشبهة:

ينقسم الرد على تلك الشبهة إلى جزءين جزء يتعلق بادعائهم كفاية العقل عن إرسال الرسل، والجزء الثانى يتعلق بالحكمة من إرسال الرسل بعد علم الله بتكذيب أممهم لهم.

[أ] الجزء الأول: ادعاؤهم كفاية العقل عن الرسل والأنبياء:

إن الرسول إذا جاء بما يوافق العقل فهو بمثابة قيام أدلة عقلية كثيرة على مدلول واحد من أن الدلالة يمكن أن تقع بدليل واحد، فلا يقال إن كثرة الأدلة عبثًا، وذلك لأن تضافر الدواعى الكثيرة من شأنه أن يحدث أثرًا لا يحدثه داع منفرد، فلو فرض أن العقول تهتدى وحدها إلى معرفة الله وشكره فماذا يضير أن يتأيد ذلك بداع من قبل الله يكون عونًا لهذه العقول ومؤيدًا لها، وهذا الداعى والمؤيد هو النبى[3]، فالقول بكفاية العقل إذا أتى الأنبياء بما يوافقه باطل.

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستانى (١٣٧/٤، ١٣٨)، والعقيدة النظامية للجوينى (ص٦٣)، والتمهيد للباقلانى (ص١٤٤، ١٤٥)، والأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار (ص٥٦٣) والإرشاد للجوينى (ص ٣٠٣، ٣٠٤)، وطوالع الأنوار للبيضاوى (ص١٦٦، ١٦٥).

(٢) انظر التمهيد للباقلانى (ص١٣٩)، والفصل لابن حزم (٦٣/١، ٦٤).

(٣) انظر: الإرشاد للجوينى (ص٣٠٣، ٣٠٤).

أما ادعاؤكم أن الأنبياء إذا أتت بما يخالف العقل تكون بعثتهم باطلة فذلك بمثابة ما لو تقدم مريض إلى الطبيب يسأله عما يصلح له، فهو على الجملة يعلم أنه يريد ما يشفيه ولكن لا يتعين له ما فيه شفاؤه، والطبيب ينص له على ما يشفيه، وكذلك المبعوث إليهم لا يعلمون ما يصلحهم قبل بعثة النبى، فإذا أرسل نص على الراشد وأوضح مناهج القاصد"[1].

ثم إنه ليس كل ما هو معقول الجنس يجب أن يعقله الإنسان، فالعلم بخاصيات الأشياء وماهيات الوجود ما هو معقول الجنس وليس كل إنسان يدركه فى الحال.

ويمكن إجمال الوجوه التى تترتب على فوائد البعثة فى الآتى:

أولاً: أن الأنبياء يأتون بأشياء لا يمكن أن تدركها العقول ثم هى ضرورية للناس لإصلاح حياتهم وآخرتهم، من هذه الأشياء أمور البعث والحشر وأحوال الجنة والنار وبالجملة ما لا يصل العقل بنفسه إليه تأتى الأنبياء لتوضحه وتبينه للناس.

ثانيًا: أن الأنبياء يأتون لتقرير الحجة فيما دل عليه العقل بالاستقلال لينقطع عذر المكلف من كل الوجوه، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿ ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾[3].

وإقامة الحجة على الناس ببعثة الرسل من ثلاثة وجوه:

أ ـ أن يقولوا إن الله تعالى إنما خلقنا للعبادة فوجب أن يبين لنا ما يريده منا فإن العبادة وإن كان أصل وجوبها فى العقل لكن كيفيتها غير معلومة لنا، فبعث الله الرسل لقطع هذا العذر فإنهم إذا بينوا الشرائع مفصلة زالت أعذارهم.

---

(١) الإرشاد (ص٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) النساء الآية ١٦٥ .

(٣) سورة طه الآية ١٣٤.

ب ـ أن يقولوا إنك ركبتنا تركيب سهو وغفلة وسلطت علينا الشياطين فاستهوتنا الأهواء والشهوات فهلا أمددتنا بمن يذكرنا وينبهنا إذا غفلنا؟ فلما تركتنا مع نفوسنا وأهوائنا كان ذلك إغراء لنا على تلك القبائح

ج ـ أن يقولوا إن عقولنا دلتنا على حسن الإيمان وقبيح الكفر، ولكن لم نعلم بعقولنا أن من فعل القبيح عذب عذابًا خالدًا خاصة، ونحن نعلم بالعقل أن فى القبيح لذة وليس لك فيه نصرة ونعلم أن من عمل صالحًا استحق ثوابًا ونحن نعلم بعقولنا أنه لا منفعة لك فى طاعتنا، وهذه الأشياء كلها تطلعنا على أنه لم يكن مجرد العلم بالحسن والقبح داعيًا ولا وازعًا، أما بعد أن يرسل الله رسله فإن تلك الأعذار تنقطع.

ثالثًا: أن العقول متفاوتة والكامل نادر والأسرارالإلهية غزيرة جدًا فلابد من معلم يعلم ويرشد، والأنبياء هم الذين اختارهم الله لإرشاد وتعليم الخلق[1].

الجزء الثانى من الشبهة الأولى: ما هى الحكمة من إرسال الرسل بعد علم الله بتكذيب بعض الناس لهم؟

ب ـ أما ادعاء البراهمة بأن الله حكيم، ويمتنع عليه أن يرسل رسلاً تكذبهم أممهم، فيرد عليهم بأن الله خلق الناس وعلم أن منهم من يكفر به ويجحده، فهل من الحكمة أن لا يخلقهم بعد علمه أنهم يجحدون وجوده؟ فإن خلقهم بعد علمه يترتب على ذلك أنه لا يكون حكيمًا، فإن قالوا استدل بخلق الله أناس كثيرون على الله، نقول: وقد استدل أيضا على النبوة خلق كثير وصدقوهم، وبعثة الرسول هى إحدى الدلائل التى خلقها الله ليدل بها على معرفته، وتوحيده، فكما جاز أن يخلق الله من يعلم أنه يكذبه ويجحده ويكفر به، أيضًا جاز أن يرسل إلى من يعلم منه تكذيب رسوله، وعلى قولهم يجب أن لا يخلق الله من يعلم أن يجحد نعمه ويلحد فى صفاته، وألا يحتج بالعقول وما وضعه من الأدلة فيها على أحد علم أنه يجحدها

(١) انظر : نهاية الإقدام للشهرستانى (ص٣٦٩، ٤٢٦) والعقيدة النظامية (ص٦٣)، وانظر بصفة أساسية مطالع الأنظار شرح طوالع الأنوار للبيضاوى (ص ٤٢٥ ـ ٤٢٧) وانظر القرطبى (١٨/٦ ، ١٩.

ولا يستعملها ، ولا يثيب ما وضح فى عقله حسنه ولا يحذر مما حذرًا منه فإن مروا على ذلك تركوا دينهم وإن أبوه نقضوا اعتلالهم[١].

ثم إن الله سبحانه بخلاف جميع خلقه من جميع الجهات وإذا ثبت هذا وجب أن يكون فعله لا لعلة بخلاف جميع أفعال خلقه فلا يقال فى شيء من أفعاله تعالى أنه فعل كذا لعلة ، وهكذا فى الأنبياء لا ينبغى أن يقول أحد لِمَ بعث هذا الرجل ولم يبعث غيره ؟[٢].

---

(١) انظر : الفصل لابن حزم (١/٦٣ ، ٦٤) ، التمهيد للبلاقلانى (ص ١٤٢) ، وأصول الدين للبغدادى (ص١٥٦) .

(٢) الفصل لابن حزم (١/ ٦٣ ، ٦٤) .

الشبهة الثانية

استقباح الشريعة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم

تدور هذه الشبهة حول استقباح بعض الأمور الواردة فى الشريعة مثل ذبح الحيوان وإيلامه ، ومنها استنكار العقول للتوجه نحو الكعبة والطواف حولها والسعى ورمى الجمار ، وبالجملة كل الأمور التعبدية التى لا يعقل معناها، مثل الانحناء فى الركوع والانكباب على الوجه فى السجود، ونحو ذلك(١).

الرد على هذه الشبهة :

أ ـ أما فيما يتعلق بإيلام الحيوان وذبحه : يرد عليهم بأن الله يهلك الحيوانات ويؤلمهم بأسباب الهلاك من غير جريرة قارفوها ، ويمرض الأطفال الذين لم يفعلوا معصية ولم يقعوا فى إثم ، فإن قالوا ذلك فعله الله لحكمة ، قلنا فما الحكمة من فعله لم يبعد كون الأمر به أيضًا حكمة ، فما لم يقبح فعله من الله لم يقبح منه الأمر به.

ب - أما اعتراضهم على تعظيم البيت الحرام فيقال لهم " ما أنكرتم أن يكون ذلك أجمع لحكمة يعلمها الله ، فإن الله إذا علم أن فعل تلك الأمور من عباده فيها صلاح لهم وداع لهم إلى فعل توحيده والثناء عليه بصفاته وما هو أهله وغير ذلك مما ينالون به جزيل ثوابه وأن يكون ذلك بمنزلة ركوب البحر وقطع المسافات الطويلة فى طلب الربح أو بذل الإنسان جهده وطاقته فى الأمور الصعبة خوفاً من سبع أو ممن يريد أن يقتله "(٢).

أما اعتراضهم حول الانكباب فى الركوع والسجود ، فإن الله عز وجل قد يضطر عبده ويفقره ويعريه ويسلب العقول من بعض خلقه مع قدرته أن يكمل عقولهم ،

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (١٣٧/٤)، وأصول الدين للبغدادى (ص ١٥٤ ، ١٥٥).

(٢) التمهيد للباقلانى (ص ١٤٣ ، ١٤٤) بتصرف.

فإن قالوا إذا وقع ما ذكرتموه فى أمثال الله تعالى ففيه مصالح خفيه هو المستأثر بعلمها ، قلنا فالتزموا مثل ذلك فى الأمر بما استبعدتموه [١].

وهناك بعض الشُبه أثارها البراهمة تتعلق بكون الرسول من البشر وتدور حول عدم إعجاز القرآن .

رأينا عدم ذكرها للاكتفاء بما ذكرناه عند عرضنا لشبه المشركين قبل ذلك إذ أن تلك الشبه قاسم مشترك بين منكرى النبوة فيما يبدو .

(١) الإرشاد للجوينى (ص ٣٠٥ ، ٣٠٦) والتمهيد للباقلانى (ص ١٤٣ ، ١٤٤) ، وانظر تعليقات الدكتور سليمان دنيا على البراهمة فى كتاب فيصل التفرقة للغزالى (ص ١٤٠ ، ١٤١) .

المبحث الثالث

الفلسفة الحديثة إنكار النبوة فى

قامت فى الفلسفة الحديثة تيارات فلسفية متعددة والذى يهمنا أن نبرز أهم التيارات التى أنكرت الوحى وهى :

(أ) الفلسفة المادية : وهذه الفلسفة تنكر كل ما لا يقع تحت الحس والمشاهدة ابتداء بالألوهية وانتهاء بكافة التصورات الغيبية مثل الوحى والجن والشياطين والحياة الآخرة وما فيها.

وقد نشأ فى حضن هذه الفلسفة فلاسفة أنكروا الدين ووجهوا النقد اللاذع للكتب المقدسة والأنبياء وأخضعوا تصورات الكتاب المقدس للميتافيزيقا الميكانيكية وتناولوا ما ورد فيها مثل الألوهية والروح وملكوت الله [(١)]. تناولاً لا رحمة فيه واعتبروا أن كل حديث عن العناية الإلهية أو خلود النفس أو الأخرويات مجرد خرافات لا تستحق النظر لأنها لم تصل بعد إلى درجة التيقن العلمى [(٢)].

ووصل الأمر بأحدهم إلى أن يقول إن مطالبة عقل كبير كعقل "شكسبير" بالإيمان بمعتقدات ديانة من الديانات لهى أشبه ما تكون بالطلب إلى عملاق كبير أن يدخل فى حذاء قزم من الأقزام [(٣)] وانتهى بعضهم إلى إنكار أن يكون المسيح شخصية حقيقية [(٤)].

---

(١) انظر الموسوعة الفلسفية المختصرة (ص ٣٩٠)

(٢) موسوعة الفلسفة (٦١٧/٢ ، ٦١٨) .

(٣) قائل هذه العبارة الفيلسوف الألمانى شو بنهور . انظر كتاب شوبنهور لأندريه كريسون ترجمة أحمد كوى (ص ٩٨ ، ٩٩) ، وأيضًا ص (٩٥ ، ٩٩) دار بيروت للطباعة ١٩٥٨ م .

(٤) انظر : تعقيب الإمام الأكبر للدكتور عبد الحليم محمود على كتاب " المسيحية نشأتها وتطورها " (ص ٢٧٤ ، ٢٥٧)

(ب) الديانة الطبيعية : وهذه الديانة تكونت فى الغرب المسيحى ولسان حالها يقول : نشكرك اللهم على نعمتك ولكنا بغير حاجة إليها [١].

وهذه الديانة جاءت كأثر من آثار الكشوف الجغرافية التى اكتشفت شعوباً كانت لها أديان وأخلاق بالرغم من أنها كانت بمعزل عن المسيحية ونظرًا لذلك فقد أنكروا الوحى والرسل والمعجزات ، وحملوا حملة شعواء على رجال الدين [٢].

وقد حاول دعاة الديانة الطبيعية أن يتوصلوا عن طريق العقل البشرى إلى ديانة طبيعية تعارض الدين المنزل [٣].

وهذه الديانة تقوم فى المقام الأول على الاعتماد على العقل وأن الله قد غرس فى العقل البشرى ما يجعله كافيًا و أن الوحى لا يضيف إليها شيئًا .

فقد ذهب " برت أوف شربورى " إلى أن " كمال الله يقتضى بوجود طريق للخلاص متيسر لجميع الناس أما رسالات الوحى أو الديانات الخاصة فهى بالضرورة جزئية وتفصيلية والله لا يفعل ذلك وأن ما هو ضرورى يجب أن يكون الله غرسه فى عقل الإنسان الطبيعى وجعله متيسراً فى جميع العصور وفى جميع الأزمنة " [٤].

إن الديانة الطبيعية بدأت مؤمنة تعترف بالله وتدافع عن الوحى [٥].

يقول أستاذنا الدكتور " يحى هاشم " بعد عرضه لتطور الديانة الطبيعية ملخصاً موقف العقليين فى أوروبا : " هؤلاء هم العقليون فى أوربا بدأوا مدافعين عن الوحى المسيحى ، وتوسطوا منكرين له مكتفين بالديانة العقلية الطبيعية وانتهوا إلى اللاأدرية " [٦].

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة (ص ٦)

(٢) قصة الصراع بين الدين والفلسفة (ص ٢٣١) للدكتور توفيق الطويل ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٩ النهضة العربية .

(٣) قصة الصراع بين الدين والفلسفة (ص ٢٣١) .

(٤) فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٤٨) .

(٥) انظر : تطور الديانة الطبيعية من الإيمان إلى الإلحاد فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٣٨ - ٤٩)

(٦) انظر : فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص ٥٨) .

الرد على شبهات الفلاسفة الحدثين فى إنكار النبوة عند الماديين والمحدثين :

يكمن الرد على منكرى النبوات سواء الماديين منهم والمؤلهين فى أن نعرف الوحى ثم بعد ذلك نتبعه بمدى إمكانيته . ويدور إثبات إمكانية الوحى حول محورين :

الأول : إثبات إمكانية الوحى فى الفكر الإسلامى .

الثانى : إثبات إمكانية الوحى من الناحية العلمية التجريبية .

ونهدف من وراء ذلك أن نقنع الماديين الذين لا يعترفون إلا بما يحس ويشاهد، بما يضطرون للاعتراف به من الناحية العلمية بالرغم أنه لا يخضع للتجربة ولا المشاهدة .

وسوف نقدم نماذج للماديين لما يعترفون به بالرغم من عدم رؤيتهم له، وبعد ذلك نبين مدى حاجة البشر إلى الوحى والرسالة، وأن العقل البشرى يعجز عجزاً كلياً عن بناء أسس أخلاقية وسلوكية تضمن السعادة للإنسان فى الدنيا والآخرة .

ونتوجه بالحديث حول حاجة البشر إلى الوحى ، إلى المؤلهين الذين يعترفون بالألوهية ، ثم هم ينكرون الوحى ، ادعاء منهم أن العقل البشرى كاف فى سير أفراد الجنس البشرى نحو الكمال بما يضعه من قوانين ونظم .

تعريف الوحى :

يعرف الوحى فى اللغة بأنه " الإشارة، والكتابة، والمكتوب والرسالة، والإلهام ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ، والصوت يكون فى الناس وغيرهم "[١]. ومنه قوله تعالى﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝ ﴾[٢] أى أشار إليهم .

والوحى فى اللغة بمعناه العام يشمل الإنسان، والطير، والجماد والشياطين، فهو لا يختص بأحد دون أحد .

(١) القاموس المحيط (٤٠١/٤)

(٢) سورة مريم الآية (١١) وانظر : مختار الصحاح (ص ٧١٣)

يقول تعالى﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[١]. هذا بالنسبة للإنسان من غير الأنبياء ويقول سبحانه﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾[٢] هذا بالنسبة للطير والحشرات ويقول عز وجل﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ ﴾[٣] هذا بالنسبة للجماد .

ويقول سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[٤]وهذا بالنسبة إلى الجن والشياطين ، فهذا الوحى كله من الوحى اللغوى .

أما الوحى فى اصطلاح الشرع الخاص بالأنبياء والمرسلين فيعرف بأنه " ما يلقيه الله لأنبيائه من العلم الضرورى الذى يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون قد أعد أرواحهم لتلقيه بواسطة كالملك أو بغير واسطة "[٥].

ويعرفه الشيخ " الظواهرى " بأنه : " إعلام الله تعالى أنبيائه إما بكتاب أو برسالة ملك أو منام أو إلهام "[٦]

وتكاد التعريفات تجمع على أنه إلهام خفى من قِبَلْ الله إلى واحد من البشر ، يصطفيه الله تعالى ، يصير هذا الإنسان بعد الوحى إليه نبياً أو رسولاً[٧].

هذا الإلهام الخفى من الله بأى واسطة يحددها الله ممكن وواقع بالفعل لعدد كبير من الأنبياء خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وسنتحدث عن إمكانية الوحى عند مفكرى الإسلام ثم بعد ذلك عن إمكانية الوحى من الناحية العلمية التجريبية .

---

(١) سورة القصص الآية (٧) .

(٢) سورة النحل الآية (٦٨) .

(٣) سورة الزلزلة الآية (١ : ٥) .

(٤) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٥) انظر : تفسير المنار (٥٦/٦) بتصرف .

(٦) التحقيق التام فى علم الكلام (ص ١٦٠) .

(٧) بناء على التفريق بين النبى و الرسول " فالنبوة اختصاص العبد لسماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى تكليفى سواء أمر بتبليغه أم لا " والرسالة كالنبوة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ . جوهرة التوحيد (ص ١٤٧).

إمكانية الوحى عند مفكرى الإسلام

تناول مفكرو الإسلام إثبات إمكانية الوحى وجواز اتصال من يصطفيه الله بالملأ الأعلى، وأوردوا أدلة مادية محسوسة تدل على هذا الإمكان، وأبرز من تناول هذه المسألة العلامة "ابن خلدون" فى مقدمته فهو يرى أن العالم بما فيه من المخلوقات على هيئة من الترتيب والإحكام وأول الأشياء التى تلفت النظر عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج هذا العالم؟ صاعدًا من الأرض إلى السماء، ثم إلى الهواء، ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدًا أو هابطًا، فعالم التكوين ابتدأ من المعادن، ثم النبات، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق الحيوان، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذى بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية، ثم إنا نجد فى العوالم على اختلافها آثارًا متنوعة، ففى عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفى عالم التكوين آثار من حركات النمو والإدراك، تشهد بأن لها مؤثرًا مباينًا للأجسام، فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا العالم فى وجودها وذلك هو النفس المدركة والمحركة فلابد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضًا ويكون ذاته إدراكًا صرفًا وتعقلاً محضًا، وهو عالم الملائكة، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتًا من الأوقات فى لمحة من اللمحات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل، ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرئية التى أشرنا إليها سلفًا[(١)].

وابن خلدون يدلل على إمكانية الوحى واتصال السماء بالأرض عن طريق إنسان يكون هو القمة فى بنى جنسه، ويصل ابن خلدون إلى هذه النتيجة بعد أن

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص٥٤، ٥٥).

رتب الكائنات درجات بعضها فوق بعض، الجماد، فالنبات فالحيوان، فالإنسان، فالملائكة، وهو فى هذا الترتيب يضع على رأس كل عالم كائنًا تتمثل فيه خصائص عالمه فى أعلى مقاماتها"[١].

وبعد أن يعرض ابن خلدون إمكانية الوحى ينتهى إلى وقوعه بالفعل لبعض النفوس، يقول: "النفوس البشرية على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية، وهذا نطاق الإدراك البشرى الجسماني، وإليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسيخ أقدامهم.

الصنف الثاني: متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحاني، والإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعداد لذلك وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم والمعارف الربانية.

الصنف الثالث: مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير فى لمحة من اللمحات ملكًا بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقهم، وسماع الكلام النفساني، والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة وهى حالة الوحي، فطرة فطرهم الله عليها، وجبلة صورهم فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب فى غرائزهم من القصد والاستقامة التى يحازون بها تلك الوجهة [٢].

وبهذا التقسيم للنفوس يكون ابن خلدون قد أوضح النفوس التى عندها استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الأفق الأعلى فى لحظة من اللحظات هى لحظات الوحي.

ولا يفهم من كلام ابن خلدون أنه يذهب إلى أن النبوة تنال بالكسب فهو يصرح فى ثنايا كلامه أنها اصطفاء وهبة من الله تعالى[٣]، ولا مجال فيها للكسب أو

---

(١) انظر: فى مواجهة الماديين والملحدين (ص ٤٧).

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص٥٥ ،٥٦).

(٣) المصدر السابق (ص٥٦).

الاجتهاد، وما ذهب إليه ابن خلدون صاغه الأستاذ محمد فريد وجدى فى مناقشته للماديين المنكرين لكل ما لا يقع تحت الحِسّ والمشاهدة وعلى وجه الخصوص الوحى وما يتعلق به.

يقول ما ملخصه: إن مبدع الوجود الذى يصور الكائنات كلها على أى أساليب الإيجاد شاء، لم يقطع إمداده لها طرفة عين، ومما يجب لفت النظر إليه أن تدبير روح الوجود للكائنات وشدة اتصاله بها أظهر ما تكون فى الكائنات الدنيا من الأحياء.

خذ فى يدك بذرة تفاحة وتأملها تجدها تكاد لا تفترق عن الحصاة الميتة، فإن قيل لك ولم تكن قد رأيت ذلك من قبل أن هذه البذرة توضع فى الأرض فتنبت ثم تزهر ثم تثمر تفاحًا لكذبت محدثك واتهمته بالازدراء بك، ولكن هذه البذرة حين تغرس فى الأرض وتسقى بالماء تنفرج عن جذير وسويق، الأول يغوص إلى أسفل فى الأرض يتطلب الغذاء ولا يرتفع إلى السطح، والثانى يرتفع إلى السطح متطلبًا الهواء والنور، فإن حاولت أن تغير وضع هذين العضوين فلا تستطيع، ثم تأمل: أليس هذا الأمر الذى له علة معقولة يدلك على فعل الروح الإلهى فيه؟ وإلى دفعه لكل من هذين العضوين إلى موضعهما لابد من وجودهما فيهما لأداء وظيفتهما فى الإنبات، أليس هذا الأمر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف وعلى دفعها لكل عضو فيه؟

وإذا ما تركنا المملكة النباتية وارتقينا إلى المملكة الحيوانية، ونظرنا إلى تلك الكائنات الساذجة المكونة من خلية واحدة وهى أبسط ما يمكن تصوره، نجدها مُمَتَعَةْ بالعلم الذى يحفظ وجودها ويصون نوعها وبالمحاولات التى لا غنى لها فى الدفاع عن أنفسها وفى الاحتيال للخلاص من أعدائها، فمن أين أتى هذه الكائنات هذا العلم وهى محرومة من الأعصاب ومن المخ معًا؟ أليس هذا العلم لديها إلهامًا من خالق الوجود نفسه؟

أترى أن هذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى فى معمعان هذه الهيجاء الحامية التى تشنها الطبيعة بعوالمها المختلفة لولا هداية الرحمة الإلهية لها وعملها المباشر على صيانتها وإرشادها إلى وجوه نجاتها؟

ولقد وصلنا إلى الإنسان، فهل يتلقى مددًا من الإلهام الإلهى على نحو ما يتلقاه النبات والحيوان؟ أما المدد الجسمانى فلا يمكن التشكك فيه فإن الإنسان يبصر ولا يدرى ما يحدث فى بلورية عينيه من التحدب والانبساط على حسب أبعاد المرئيات، ويأكل ويهضم وهو غافل عما يحدث فى أحشائه من التحليل والتركيب والتصفية والتصعيد، فمن الذى يدير كل هذه الأجهزة الدقيقة؟ ومن الذى يهديها إلى وظائفها ويقودها إلى مايقومها ويصلحها؟

هذا حال الجسد، فهل يتلقى الروح مددًا عقليًا من العلم الإلهى؟ لقد رأينا الحيوانات تلهم ما تعلمه إلهامًا، وكل فرد منها يلهم ما يصلحه إلهامًا فيكرر العمل الذى كان يعمله نوعه منذ وجد على الأرض.

فلما وجد الإنسان وكان قريبًا من الحيوان فى سذاجته وتجرده من الأوليات الضرورية لوجوده تولاه الوحى لا من طريق الإلهام والسوق، ولكن من الطريق التعليمي، ما دام قد استأهل هذه المرئية فيولد الإنسان مجردًا من كل علم وحيلة فيهديه أبواه وقبيلته إلى وجوه العمل، فأصبح للوحى سبيل خاص بالإنسان مناسب لكرامته، وهو أن يفضى الحق سبحانه بما يجب أن يعلمه الكافة ويعلنوا به إلى واحد منهم فيقوم بنشره بين معاشريه من نوعه.

وهذا هو الذى حدث بالفعل، فإن الإنسان قد اعترف منذ أقدم أيامه بما تركه من الآثار وما نقشه على الأحجار بأن آحادًا منه كانوا يتلقون الوحى فى أحوال خاصة من حياتهم فينشرونه فى قبيلتهم تحت اسم ملة أو ديانة، فيتلقاه الناس بالقبول أو يرفضونه.

فإذا كان هذا التواتر لا يكفى فى إقناع الآخذين بالفلسفة الحسية بحجة أن أولئك الأقوام فى جهالتهم لا يصح أن يوثق بأقوالهم فيما يسمونه وحيًا. قلنا قد يكون ذلك، ولكن الواقع أن للإنسان وهو يجتاز دور الحيوانية (عفوًا) فالخطاب لأهل الفلسفة الحسية، لا يعقل أن يكون قد قطع فجأة عن حالة الإلهام الحيوانى الذى تولى أمر أسلافه طوال عهدهم بالوجود، ولكن الذى يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجيًا حتى لا تعى عليه وجوه الحياة فيبيد، وعند تمام تميزه

عن العالم الحيوانى كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت تطورًا ذريعًا قابلة للاتصال بالروح الإلهى من طريق روحانى محض.

وقد يقول قائل: ما معنى اتصالها بالروح الإلهى من طريق روحاني؟ أليس هذا من تشبيه الماء بعد الجهد بالماء؟

نعم هو كذلك لدى من اكتفى من العلم بما تلقاه فى الكتب المدرسية المحدودة، ولكن منذ أن أعلن الدكتور الألمانى "سمر" بأنه اكتشف سيالاً حيويًا فى الإنسان أسماه المغناطيس الحيواني، وقد ثبت أخيرًا وصار فى عداد البديهيات لدى الباحثين بأن فى باطن كل منا عقلاً مستقلاً غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالاً منه، هذا العقل الباطن الذى لا يحس الإنسان بوجوده متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالاً مباشرًا، فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف، ويحاول أن يعكسه على صاحبه من طريق الإلهام، فهل يعقل أن لا يصل هذا العقل الباطن فى بعض الناس إلى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح الإلهى شريعة جديدة إلى شعب هو فى حاجة إليها؟

كيف يعقل خلاف هذا؟ وهو الذى حدث فعلاً فى كل أمة وفى جميع أدوار التاريخ فلم تخل الأرض قط من داع إلى الحق، وإلى الفضائل، مدعيًا أنه أرسل لأداء هذه المهمة إرسالاً، فتراه يعرض نفسه للهلكة فى سبيل تعميم دعوته، ويصبر على البأساء والضراء، متبعًا سمت الصالحين من الزهد فى الدنيا، والتواضع وإيثار الفقر، حتى ينجح فيما تصدى له، أو يقتل فى سبيله.

فإذا كان من الناس من ينكر هذا وينكر أن فى الإنسان حياتين: حياة عادية وحياة روحانية يجلبها التنويم المغناطيسي، ولا يعترف بإمكان اتصال السماء بالأرض بالوحى لمن يصطفيه الله تعالي، هؤلاء أمة وحدهم وليس يضير الحقائق أن يجافيها عدد محصور من الحسيين الماديين الجامدين على ما هم عليه.

وقد اضطررنا لتلخيص رد الأستاذ "محمد فريد وجدي" على طوله نظرًا لوضوح فكرته وقوة براهينه.

وممن تناولوا إثبات إمكانية الوحى الشيخ "محمد عبده" يذكر فى رسالة التوحيد أنه لا استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم بأن ذلك من واهب الفكر ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها

بعضًا وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط، بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه، ولا شك فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى ما لا يحصره العدد، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريبًا عنده، فيسعى إليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته، ويعجبون لنهايته، ثم يألفون ما صار إليه، كأنه من المعروف الذى لا ينازع، والظاهر الذى لا يجاحد، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادئ الأمر على من دعاهم إليه، فمن ضعف العقل أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهى لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمور الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعلقه بالدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحًا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت، ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم [(١)].

كل هذه الأدلة العقلية تدل على إمكانية الوحى وأن الله عز وجل المتحكم فى الكون وما يجرى فيه، قادر على أن يصطفى من خلقه من يكون أهلاً لاتصال السماء به والوحى إليه بما يضمن للناس سعادتهم فى الدنيا والآخرة، وكما يذكر الأستاذ "العقاد" : فإن الغيب غير مستحيل، والعلم به لا يدخل فى باب الممنوعات أو غير المعقولات وإذا كان عنصر العقل فى هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول.

وإذا كان العقل البشرى لا ينفى بالدليل المقنع وجود العقل الأبدى فليس له أن يجزم باستحالة شيء بما يستطيعه ذلك العقل الأبدى بالأبد كله، أو من القدرة على الإيحاء به إلى من يشاء أو من القدرة على خوارق العادات، لأن الخوارق بالنسبة إليه كالعادات، ولأن التغيير عنده كالإنشاء والإبداع [(٢)].

---

(١) انظر بتصرف رسالة التوحيد (ص ١١٠ ـ ١١٢).

(٢) انظر: التفكير فريضة إسلامية (ص٨٨).

إمكان الوحى من الناحية العلمية التجريبية:

ذكر العلماء المحدثون وجوهًا عديدة لإمكانية الوحي، وتدور هذه الوجوه حول وجود عدد كبير من الحقائق العلمية التى لا ترى ولا تشاهد ومع ذلك يتعامل معها الماديون.

يقول الأستاذ "وحيد الدين خان" : إن هناك وقائع كثيرة جدًا تجرى من حولنا فى كل لحظة ونحن نعجز عن إدراكها أو سماعها، أو الإحساس بها بواسطة أجهزتنا العصبية، وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراكها بفضل الأجهزة العلمية التى اخترعناها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنيك[1].

وهذه الوقائع لا ينكرها الماديون بالرغم أنها تقع على شرطهم وهو عدم الاعتراف إلا بما يحس ويشاهد، والسؤال هو لماذا اعترافهم بهذه الوقائع وتعاملهم معها، وعدم إيمانهم بقضايا الغيب ومنها الوحي؟

إن هناك كثيرًا من الغيبيات يعترف بها العلماء نذكر منها:

أ ـ الإشراق والكشف:

يذكر الدكتور "هيروش موتوياما" مدير معهد علم النفس الدينى بطوكيو "أن قدرة بعض الأشخاص أو بتعبير أدق بعض الأجهزة العصبية لبعض الأفراد على إشعاع ما يطلق عليه حديثًا قدرة كشفية خاصة قد أصبحت فى متناول الاختبار والقياس بواسطة بعض التجهيزات الكهربية الخاصة "[2].

أى أن الأمور التى لا تخضع للمشاهدة قديمًا أصبحت الآن خاضعة للتجربة بواسطة الأجهزة الحديثة.

يقول " وحيد الدين خان" : "قد تبين أن تجارب الإشراق أو الانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات وإنما توجد فى الإنسان بالقوة، إن حدود الفرد فى إطار

(١) الإسلام يتحدى (ص٩٦).
(٢) نقلاً عن "فى مواجهة الإلحاد المعاصر" (ص١٧٩ ، ١٨٠).

الزمان والمكان هى مجرد افتراض فيستطيع عامل الإشراق أن يجعلك تنام وتضحك أو تبكى كما يستطيع أن ينقل إليك كلمات أو خواطر لست على علم بها إن أى عملية لا تستعمل فيها أية وسيلة لا يشعر بها غير عامل الإشراق وصاحبه"[١].

ولهذا لا يستحيل وقوع هذه العملية نفسها بين العبد وربه مع الفارق بين قدرة الله وقدرة البشر، إن الإنسان بعد هذه التجارب لا يجد أساسًا لإنكار الوحى والإلهام وليس أمامه إلا الإيمان بالله والوحي.

[ب] العقل الباطن:

لقد اكتشف العلماء قوة غيبية فى جسد الإنسان هذا العقل هو الذى يدير جسد الإنسان ويتصل اتصالاً مباشرًا بالحياة الروحانية.

يذكر الأستاذ "محمد فريد وجدي" أن العالَم منذ سنة ١٧٧٠م أى منذ أن أعلن الدكتور الألمانى "مسمر" بأنه اكتشف سيالاً حيويًا فى الإنسان أسماه المغناطيس الحيوانى وهو جاهد فى تحقيق وجود هذا السيال ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعى الذى ثبت أخيرًا وصار فى عداد المعارف الأولية لدى الباحثين بأن فى باطن كل منا عقلاً مستقلاً غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالاً منه، هذا العقل هو الذى يتصل بالعالم العلوى وتحدث عن طريقه ظاهرة الأحلام التى لا يستطيع العلم أن يفسر حدوثها وهذا العقل الباطن الذى لا يحس الإنسان بوجوده متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالاً مباشرًا، فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف ويحاول أن يعكس على صاحبه من طريق الإلهام، فهل يعقل أن لا يكون هذا العقل الباطن قد وصل فى بعض الناس إلى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح الإلهى لإيصال شريعة جديدة إلى أناس هم فى حاجة إليها[٢].

[ج] المؤثرات الحيوية غير المحسوسة :

إن هناك مؤثرات على الإنسان والحيوان غير محسوسة ولا مشاهدة، ولكنها أصبحت فى عداد الحقائق نظرًا للتسليم بها من عدد كبير من العلماء.

---

(١) الإسلام يتحدى (ص٩٧).

(٢) الإنسان دين عام خالد (ص٩٣).

يقول الأستاذ "بورى خلوؤف" الأخصائى فى وظائف الجهاز الفسيولوجى العصبي: عندما يطرح التساؤل عن احتمال وجود شيء يؤثر على الكائنات الحية دون أن تدركه حواسها يتبادر إلى الذهن مثال المجالات الكهرومغناطيسية، فمن الناحية التطورية نجد أن الإنسان قد تكيف بحيث تستطيع أعضاؤه الحسية المتخصصة إدراك قطاعين متجاورين فقط من بين المدى الكلى للذبذبات الكهرومغناطيسية، فكلنا على دراية بتلك المجالات التى نحسها فى شكل حرارة أو ضوء.

أما ما يجمع بين كل المجالات الكهرومغناطيسية فهو أثرها المخترق وعدم إثارتها لأى إحساس خاص بها لدى الإنسان مما يجعلنا نستنتج أنها تؤثر على الإنسان بطريقة غير محسوسة، ويذكر عن إمكان نقل المعلومات عن طريق المجالات المغناطيسية بأننا سوف نكتشف أيضًا كيف يستطيع شخص معين نقل معلومات إلى شخص آخر عن طريق واع لمجالاته الكهرومغناطيسية الحيوية.

ولا يقتصر مجال التأثير الكهرومغناطيسى على الإنسان، بل يؤثر على هذا النشاط فى سلوك الطير والحيوان والأسماك والنبات، فالمجالات الكهرومغناطيسية واحدة من بين عدة وسائل تستخدمها الطيور للاستهداء، ولذلك فالواجب أن نأخذ هذه المقدرة فى اعتبارنا عن كيفية تعرف الطيور على طريقها، ويصدق هذا القول أيضًا على استهداء الأسماك والحشرات والحيوانات الأخري، بل يصدق كذلك على النبات(١).

كل هذه الأمثلة يتعامل معها الماديون باسم العلم بالرغم من عدم رؤيتهم لها، ونحن نقول إن الوحى كهذه الظواهر، لا يُرى، ولكن آثاره تظهر على الأنبياء والرسل الذين يختارهم الله لتبليغ وحيه إلى أممهم.

وقد تكرر اختيار الله للأنبياء والرسل فى الأزمنة المختلفة منذ بدء الخليقة، وكان آخر الأنبياء والمرسلين هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

فلا مجال إذن لإنكار الوحى وسائر الغيبيات بناءً على عدم وقوعه تحت التجربة بعد الذى قدمناه من النماذج الملزمة للماديين.

---

(١) فى مواجهة الإلحاد المعاصر (ص١٥٠ ـ ١٥٢) نقلاً عن العلم والظواهر الخارقة (ص ٢٦ ـ ٣٠).

تعقيب على إنكار
الماديين وأصحاب الديانة الطبيعية للوحى والنبوة

أولاً: الفلسفة المادية:

إن الفلسفة المادية يجب أن يوجه النقد إليها فى الأصل الأول الذى أنكرته وهو الألوهية، وقد فندنا شُبه الماديين على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، وهنا نناقش الماديين فى إنكارهم للنبوات، ولابد من بيان أن ما حدث من الماديين فى نقدهم للكتب المقدسة وعدم صمود هذه الكتب أمام النقد العلمى كان خاصًا بالعهد القديم والعهد الجديد.

أما القرآن الكريم فإنه:

أولاً: لا يخضع لمناهج النقد التى يطبقها العلماء فإن الإلهى لا يخضع للبشري.

نقول ذلك لاعتقادنا أن القرآن الكريم لم يبدل ولم يحرف كما حدث فى العهد القديم والعهد الجديد.

ثانيًا: أن المشاكل التى أثيرت فى العهد القديم والعهد الجديد لا مثيل لها فى القرآن الكريم، ولعل الدراسة التى أجراها العالم الفرنسى "موريس بوكاي" خير شاهد على هذا [(١)]، أما تمسكهم بالعقل وما يقرره فذلك غرور، فإن العقل الذى يغترون به لا يعلم شيئًا عما وراء الحياة الدنيا، بل إن تلك الحياة نفسها لا يعلم العقل عنها إلا الظاهر فقط، كما قال تعالى ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ** ۝ ﴾ [(٢)].

---

(١) انظر الدراسة الشاملة، دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى، الناشر: دار المعارف.

(٢) سورة الروم الآية (٧).

والذى يبدو جليًا أن وقوف منكرى النبوة والألوهية هذا الموقف الرافض لكل ما هو دينى كان انتقامًا من الكنيسة ومن رجال الدين فى أوربا، فإن الفلاسفة لم ينسوا ما فعل بأقرانهم إبان عصر النهضة من قتل وحرق، ولهذا عندما أخذت سلطة هذه المحاكم فى التقلص والتضاؤل وفقد البابا قوته وسلطانه، انطلق الناس نحو المادية والإلحاد كرد فعل للممارسات التى مارستها محاكم التفتيش[١]. وما حدث فى أوروبا ضد العلم حدث ضده فى المجتمع الإسلامي، فقد شجع الإسلام وشجع الحكام كل اتجاه عقلى يهدف إلى استغلال ما استودعه الله فى كونه، وشُجعت الدراسات التى تقوم على التجارب، ففرق كبير بين ما حدث فى أوروبا، وما حَثَّ عليه الإسلام ونادى به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن يبدو أن البغض للشيء يعمى الإنسان عن كل شيء.

فلأن القضايا التى فى الكتاب المقدس لا تخضع لمعايير النقد العلمى رفض الماديون النبوة من أساسها، وكان الواجب عليهم أن يبحثوا عن المصدر الصادق المتمثل فى القرآن الكريم.

ثانيًا: الديانة الطبيعية:

إن أهم المآخذ عليها:

أولاً: أنها حين رفضت الديانة الموحى بها من الله فقد ارتضت ديانة من وضع البشر، وكان عليهم بدلاً من أن يرفضوا الوحى أن يبحثوا عن الرسالة الخاتمة التى لم تُبدل ولم تُحرف، والتى فيها إجابة عن كل التساؤلات التى من الممكن أن يطرحها العقل.

ثانيًا: أن هذه الديانة تخلو من التفصيلات [٢]. اللازمة لاستمرار الدين، وهذه التفصيلات تتمثل فى الأوامر والنواهى التى لا يقوم بها العقل فلابد من وحى معصوم يقوم بهذه المهمة ويرشد الناس إلى ما ينفعهم وينهاهم عما يضرهم، وبالجملة يرشدهم إلى السعادة فى الدارين.

---

(١) الله خالق الكون (ص ٦٢٩ ـ ٦٣٠) أ. جعفر الهادي، الناشر: دار الأضواء، بيروت لبنان.

(٢) انظر عصر الألحاد (ص٦٧ ، ٦٨).

ثالثًا: أن القول بأن الإنسان يخضع للوحى الداخلى من نفسه قول لا ينضبط، فمن الذى يضمن ألا تتدخل الأهواء وحب الزعامة والجاه والسلطان من ادعاء أشياء تتعلق بالإنسان ورغباته وشهواته.

رابعًا: أن الإنسان ما دام بعيدًا عن سلطان خارجى يتمثل فى الوحى فهو عرضة للانزلاق إلى الكفر والإلحاد مادام لا يخضع لضابط يضبط تصرفاته، اللهم إلا عقله، وما يثبته العقل اليوم ينفيه غدًا، أو ما يراه مناسبًا فى الغد قد لا يكون مناسبًا بعد غد، وهذا بعينه ما حدث، فقد انتهت الديانة الطبيعية المتحللة من الوحى إلى إنكار وجود الله مع النبوة، وهذا ما كان إذ لا يمكن أن يتمرد الإنسان على هدى الله ويوفقه الله.

خامسًا: يجب ألا ننسى أن هذه الديانة نشأت كرد فعل لما فعلته الكنيسة بالعلماء، وما فرضته عليهم باسم المسيحية مما لا يتفق مع العلم ولا مع الدين الحقيقى الذى جاء به السيد المسيح عليه السلام.

سادسًا: أن المشكلة التى وقع فيها الإلحاد الأوروبى أنه لم يفرق بين ما هو من البشر وما هو من الله، فإن الأوروبيين نفروا من النبوة والأنبياء بناء على التفسيرات الخاطئة التى مارسها علماء اللاهوت من النصارى، ويبدو أن الذين نفروا عن الدين لم يكونوا فى حالة نفسية تسمح لهم بالبحث والتأنى لفرز الحق من الباطل، وإلغاء الباطل واتباع الحق، وإنما كانوا كالملسوع الذى يصيح هاربًا من كل لمسة ولو كانت لمسة الدواء، وبسبب ذلك التاريخ الفاسد قامت الحضارة الأوروبية على أساس تداو للدين نافر منه منسلخ من كل ما يتصل به من عقيدة أو تصور أو سلوك [1]، لكن إذا كان هذا قد وقع فى الغرب بسبب التصورات الفاسدة فى المسيحية.

فهل وقع هذا فى الإسلام؟

الحق الذى شهد به القاصى والدانى أن الإسلام بمصدريه الكتاب والسنة، شاهدان على تكريم الإنسان فى كل فترة من فترات حياته منذ المولد حتى الممات،

(١) دراسات فى النفس الإنسانية (ص٢٢٩).

وشمولية الإسلام قضت على الانفصام بين مطالب الجسد والروح الذى يصطلى به أتباع الأديان الأخرى.

ونصوص القرآن الكريم والسنة ورد فيهما ما يلبى حاجات الإنسان الضرورية من مأكل ومشرب وملبس وتعلم إلى كمالياته من أخذ الزينة والتمتع بطيبات الله التى ما خلقت إلا من أجل الإنسان الذى استخلفه الله وأطلق له العنان فى الكشف عن سنن الله فى الكون.

أما فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بربه، فإن القرآن الكريم، وكذا السنة يرفضان رفضًا تامًا أي وساطة بين الإنسان وبين ربه، يقول تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1] ، وهذا بخلاف ما فعله اليهود والنصارى مع رهبانهم وأحبارهم.

(١) سورة غافر الآية (٦٠).

الفصل الثانى

شبه المعترفين بأصل النبوات المنكرين لبعض الأنبياء

ويشمل:

المبحث الأول: شبه اليهود فى إنكار المسيح والرد عليهم.

المبحث الثانى: إنكار اليهود والنصارى لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

تمهيد:

في هذا الفصل نعرض للمقرين بأصل النبوات ولكنهم يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون بالبعض الآخر، مثل اليهود الذين يعترفون بأصل النبوات ولكنهم ينكرون نبوة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم بالرغم من أنهم يعترفون بنبوة موسى والأنبياء من قبله ومن بعده، ولكنهم يرفضون الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم.

وقد قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: إنكار اليهود لنبوة المسيح عليه والسلام وافترائهم على أمه واتهامهم لها بالفاحشة، وقد تناولنا فى هذا المبحث عرض شُبه اليهود فى إنكار عيسى عليه السلام، وبيَّنا الأسباب الحقيقية التى جعلت اليهود ينكرون نبوة المسيح عليه السلام.

المبحث الثاني: يتناول إنكار اليهود والنصارى لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ضمن اليهود والنصارى المستشرقين الذين افتروا على النبى صلى الله عليه وسلم وادعوا أن القرآن من تأليف محمد، وقد بحثت شبهتهم تحت عنوان "بشرية القرآن" وقد فندنا تلك الشبهة وبيَّنا تعصب المستشرقين ومخالفتهم للمنهج العلمى الذى يتشدَّقون به، وقسَّمنا الأسباب التى أدت إلى إنكار اليهود والنصارى للرسول صلى الله عليه وسلم إلى أسباب عامة يشترك فيها اليهود والنصارى وإلى أسباب خاصة باليهود وحدهم والنصارى وحدهم. ورددنا على تلك الشبهات كلها.

المبحث الأول
إنكار اليهود لنبوة عيسى عليه السلام

أولاً: اتهامهم لعيسى وأمه بالزنا:

إن الله عز وجل بعد أن بشَّر مريم عليها السلام بالمسيح حملت به ووضعته حسبما ورد فى سورة مريم﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1]، وكان لليهود موقفٌ منـها عليـها السلام، إذ عرَّضوا بها تارة، ورموها بالزنا تارة أخرى، يقول تعالى:

(١) انظر الآيات (١٧ ـ ٣٣).

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴾ [١]

ويقول سبحانه عن اتهام اليهود الباطل لمريم ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًۭا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [٢]. وهاتان الآيتان تبينان :

أن اليهود رموها بالفرى وهو الشيء العظيم حيث أتت بولد من غير أب، وعرَّضوا بها فى قولهم ما كان أبوك امرأ سوء أى زانيًا، وما كانت أمك بغيًا أى زانية، فمن أين لك بالولد؟ وأنهم تقوَّلوا على مريم بهتانًا عظيمًا والبهتان من البهت، وهو أن يستقبل الإنسان غيره البرئ فيقذفه، وهم قد رموا مريم البريئة بالبهتان العظيم الذى تمثل فى رميهم إياها ليوسف النجار، وهذا كذب مفرط يتعجب منه.. خاصة بعد أن أظهر الله براءتها[٣] .

وقد اتفق اليهود على أن عيسى عليه السلام ابن زنا ـ برأه الله مما قالوا ـ ولكنهم يختلفون فى هذه الصفة : هل هى راجعة إليه أو إلى أمه؟

ففريق منهم يذهب: إلى أنه كان رجلاً منهم يعرفون أباه وأمه وينسبونه إلى "باندرا" الرومي، ويزعمون أن "يوسف النجار" وجد "باندرا" عندها على فراشها فهجرها وأنكر ابنها.

وقد ورد فى إنجيل يوحنا اتهامهم للمسيح بأنه ابن زنا " قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله – هذا لم يعلمه إبراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا له إننا لم نولد من زنا " [٤]

وهذا الكلام منهم على سبيل التعريض لعيسى عليه السلام بأنه ابن زنا وذلك رد على اتهامه لهم بأنهم يتبعون تقاليد آبائهم لا تقاليد إبراهيم عليه السلام بينما هو

(١) سورة مريم الآية (٢٧ ـ ٢٨).
(٢) سورة النساء الآية (١٥٦).
(٣) انظر: تفسير الجلالين (ص٢٦٧) والقرطبى (٨/٢).
(٤) يوحنا ٨ : ٣٩ -٤٣ .

يوماً مع معلمه " يهشوع بن برخيا " وسائر التلاميذ فى سفر نزلوا موضعاً فجاءت امرأة من أهله وجعلت تبالغ فى كرامتهم، فقال يهشوع ما أحسن هذه المرأة !!! يريد أفعالها ، فقال عيسى بزعمهم لولا عور فى عينها فصالح يهشوع وقال يا ممزار (ترجمته يا زنيم) أتزنى بالنظر . وغضب منه غضباً شديدا ، ولما عاد إلى بيت المقدس حرم اسمه ولعنه فى أربعمائة قرن [(١)] . فهنا النسبة إلى عيسى نفسه .

والتلمود يصرح بنسبة عيسى عليه السلام إلى الزنا ، ففى إحدى طبعات التلمود أن عيسى يُدعى أنه ابن الجندى يوسف بندارا أحبلت به مريم قبل زواجها [(٢)]

والنصوص القرآنية تبين أن مريم هى التى اتهمت بالزنا من اليهود عليهم اللعنة .

الرد على تلك الشبهة :

طهارة مريم منذ مولدها :

لقد عرض الله قصة مريم ابنة عمران منذ أن حملت بها أمها ، وقبل دعوة أمها حين وضعتها، يقول ﴿ **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴾ [(٣)] .

استجاب الله لدعاء امرأة عمران وقبل مريم قبولاً حسناً وأجرى الكرامات على يدها منذ أن كانت فتاة تتعبد لربها فى المحراب ، يقول تعالى ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [(٤)]

وهذه الآيات توضح :

[أ] أن امرأة عمران دعت الله عز وجل أن يُعيذ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم، وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بهذا فيما رواه مسلم عن أبى

---

(١) هداية الحيارى (ص ٣٠٥ ، ٣٠٦)
(٢) التلمود وتاريخه وتعاليمه (ص ٦١ ، ٦٢)
(٣) سورة آل عمران الآية (٣٦)
(٤) سورة آل عمران الآية (٣٦)

هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من مولود إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه"[١]. ثم تلا أبو هريرة اقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[٢] يعلق الإمام القرطبى على هذا الحديث بقوله : " قال علماؤنا فأفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم ، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها ، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس وإغواؤه ، فإن ذلك ظن فاسد ، فكم تعرَض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان"[٣]. وهذا يبين أن مريم قد حفظها الله من الشيطان ، ويدحض قول اليهود عليهم اللعنة فى رميهم إياها بالفاحشة .

[ب] أن مريم منذ لحظة ولادتها ، أحاطها الله بعنايته ورعايته وأنبتها نباتاً حسناً ورزقها رزقاً من عنده كرامة لها ودلالة على تقواها وصلاحها ، حتى أن أهل السنة استدلوا بما أغدق الله عليها من الرزق على صحة القول بكرامة الأولياء ،

يقول الرازي : "احتج أصحابنا على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أن زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، ويستفاد من تنكير الرزق فى الآية أنه كان عجيبًا وعظيمًا وغريبًا"[٤]

ووجه ارتباط ذكر الكرامة بالموضوع الذى نعرض له أن مريم كانت فى حضور دائم مع الله ، ومن كان هذا شأنها فإن الله لا يتخلى عنها ويرزقها من حيث لا تحتسب.

وإذا كانت الفتاة التى تربى فى الصلاح والتقوى وتؤخذ بالرعاية والعناية من أولياء أمورها ، لا يتوقع منها الإساءة فضلاً عن الفاحشة ، فما بالنا بمريم التى أنبتها

(١) صحيح مسلم (٣٤١/٢).
(٢) سورة آل عمران الآية (٣٦).
(٣) تفسير القرطبى (٦٨/٤).
(٤) التفسير الكبير للرازى (٣٢/٨).

الله نباتًا حسنًا وقبلها بقبول حسن وكفلها لأحد أصفيائه وهو نبى الله زكريا، فإن مريم فى تلك الحالة لا يخطر على بالها أى سوء، إذ هى غافلة عن كل شيء مما يخطر لغيرها، ولذلك اصطفاها الله وطهرها، يقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1]

براءة مريم على لسان عيسى عليه السلام:

لقد نص الله فى القرآن الكريم على ما كان من أمر مريم وحملها بعيسى عليه السلام ووضعها له وبراءتها مما اتهمها اليهود به، وأظهر الله معجزة على يد عيسى فى المهد لكى يكف اليهود عن اتهامهم لمريم ويبرءون عرضها ويعلمون أن ولادة عيسى عليه السلام نوع من المعجزة تبين طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرته على خرق العادة.

يقول تعالى عما حدث لمريم ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

---

(١) سورة آل عمران الآية (٤٢).

كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [1]

وهذه الآيات جميعها تبرئ ساحة مريم مما اتهمت به وتقرر:

[أ] أن حملها بعيسى هو بإرادة الله عز وجل والغاية من ولادته بغير أب أن يجعله الله آية على قدرته وأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[ب] أنها حين حزنت لما حدث لها طمأنها الله عزو جل بكرامة أجريت لها وهذه الكرامة تمثلت في جدول صغير من الماء تشرب منه وأمرها أن تهز بجذع النخلة فإذا بالتمر يتساقط عليها لتأكل وتشرب وتقر عينها.

[ج] أن الله عز وجل علم خبث اليهود وسوء طويتهم فأمرها ألا تكلم أحدًا من البشر وتكتفي بالإشارة إلى طفلها، ولذلك حين اتهمها اليهود بهذه التهمة العظيمة أشارت إلى عيسى وإذا بالله ينطقه كمعجزة مبكرة وتبرئة لأمه العذراء ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [2] ، قيل: كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه، فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله سبحانه وتعالى، وردًا على اليهود الذين اتهموا أمه بالزنا، يذكر القرطبي أنه قد صح براءتها من الزنا بكلامه في المهد[3].

[د] بالرغم من ظهور براءة مريم عليها السلام على لسان عيسى الطفل الرضيع، إلا أن اليهود لم يقتنعوا بكلامه، ورموها بالفاحشة، ومن ثم كفرهم الله وكان من أسباب كفرهم افتراؤهم على مريم، يقول تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [4]. وكفرهم من وجوه:

الأول: أنهم أنكروا قدرة الله على خلق عيسى بدون أب، ومنكر قدرة الله كافر.

---

(١) سورة مريم الآيات (١٦ – ٣٣).

(٢) سورة مريم الآية(٣٠).

(٣) تفسير القرطبي (١١ / ١٠٢، ١٠٣).

(٤) سورة النساء الآية (١٥٦).

الثاني: أنهم نسبوا مريم إلى الزنا ونسبهم إليها الزنا بعد وضوح الآيات على براءتها كفر وقد برأها الله بكلام عيسى حال كونه منفصلاً عن أمه، وكل ذلك دلائل قاطعة على براءتها من كل ريبة، ولذلك وصف الله تعالى طعن اليهود فيها بأنه بهتان عظيم(١).

وقد صرح القرآن الكريم فى أكثر من آية بطهرها وعفافها يقول تعالى ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٢). ويقول سبحانه﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾(٣)، ومعنى أحصنت أى تكلفت فى عفتها كما يقول الرازي(٤).

ويضيف سيد قطب: "أحصنته فصانته عن كل مباشرة والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية، لأن الزواج يحصن من الوقوع في الفاحشة، أما هنا فيذكر الإحصان فى معناه الأصيل، وهو الحفظ والصون أصلاً من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية، وذلك تنزيهًا لمريم عن كل ما رماها به اليهود(٥). ومع هذه التبرئة لمريم فإن الله قد جعلها وابنها آية للعالمين من الإنس والجن(٦) آية غير مسبوقة ولا ملحوقة(٧).

ثانيًا: إنكار اليهود لعيسى عليه السلام:

بعد أن رمى اليهود مريم بالزنا، وقفوا فى وجه عيسى ودعوته فرموه بالسحر وقست قلوبهم وانتقلوا من التكذيب إلى الهم بالقتل.

ففيما يتعلق بتكذيبهم لعيسى ورميهم إياه بالسحر فإن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَىَّ

---

(١) التفسير الكبير للرازى (١١/٩٨، ٩٩).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٩١).

(٣) سورة التحريم الآية (١٢).

(٤) التفسير الكبير (٣٠/٥٠).

(٥) فى ظلال القرآن (٤/٢٣٩٥).

(٦) تفسير ابن كثير (٣/٢٤٦).،

(٧) فى ظلا القرآن (٤/٢٣٩٥).

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

وبالرغم من المعجزات التى أجراها الله على يديه من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله إلا أن اليهود أنكروا رسالته، يقول تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2]. وكانت معجزاته من الأسباب الرئيسية لتكذيبه وهمهم بقتله[3].

الرد على اليهود فى إنكارهم لنبوة عيسى عليه السلام:

الإيمان بموسى يستلزم الإيمان بعيسى:

لقد رفض اليهود نبوة عيسى بالرغم من إيمانهم بموسى عليه السلام، وقد التفت علماء الإسلام إلى هذا فى مجادلتهم لليهود سواء فى إنكارهم لعيسى أو لمحمد عليهما السلام.

يقول ابن حزم: "يقال لهم (أى اليهود) بأى شيء علمتم صحة نبوة موسى عليه السلام ووجوب طاعته؟ فلا سبيل إلى أن يأتوا بشيء غير إعلامه وبراهينه الظاهرة من قلب العصا ثعبانًا ويده بيضاء للناظرين فيقال لهم إذا وجب تصديق موسى والطاعة لأمره فإن العقل يقضى أن ما أوجبه لنوع فإنه واجب لأجزائه كلها، فإن إحالة الطبائع موجبة تصديق من ظهرت عليه فوجوب تصديق موسى وعيسى ومحمد واجب وجوبًا مستويًا"[4].

---

(١) سورة الصف الآية (٦).

(٢) سورة المائدة الآية (١١٠).

(٣) التفسير الكبير للرازى (١٢/١٢٧).

(٤) الفصل لابن حزم (١/٨٤) بتصرف.

وكلام ابن حزم فى إلزام اليهود لنبوة عيسى حجة قاطعة لأن كل دليل يستدل به اليهود على نبوة موسى يلزمهم به صحة نبوة عيسى، فإن طريق الدلالة واحد [١].

وإذا كان اليهود ليس عندهم حجة صحيحة على نبوة موسى إلا شهادة التواتر على معجزاته، فإن التواتر لمعجزات عيسى ومحمد موجود كوجوده لموسى، فإن كان التواتر يفيد تصديقًا فالثلاثة صادقون ونبوتهم معًا صحيحة، وهذا ما هُدى إليه أحد اليهود الذين أسلموا وهو الإمام المهتدى السموأل بن يحيى المغربى الذى يقول فى إثباته لنبوة عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم: وعلمت أنى لم أر موسى بعينى ولم أشاهد معجزاته ولا معجزات غيره من الأنبياء عليهم السلام ولولا النقل وتقليد الناقلين لما عرفنا شيئًا من ذلك فعلمت أنه لا يجوز للعاقل أن يصدق بواحد ويكذب بواحد من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، لأنه لم ير أحدهم ولا شاهد أحواله إلا بالنقل وشهادة التواتر موجودة لثلاثتهم، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يصدَق بأحدهم ويكذب الباقون، بل الواجب عقلاً إما تصديق الكل وإما تكذيب الكل، فأما تكذيب الكل فإن العقل لا يوجبه أيضًا لأنا إنما نجدهم قد أتوا بمكارم الأخلاق وندبوا إلى الفضائل ونهوا عن الرذائل، ولأنا نجدهم ساسوا العالم بسياسة بها صلاح أهله ثم ينتهى إلى الإيمان بعيسى ومحمد يقول "فصح عندى بالدليل القاطع لنبوة المسيح والمصطفى صلى الله عليهما وسلم وآمنت بهما [٢] وهذا كلام صادر عن تجرد لا عن هوى، فليس من المنطق أن يُصدَّق بنبى ويكفر بآخر بالرغم من أن طريق التصديق بالأول هو بعينه طريق التصديق بالثاني.

ويواصل الإمام السموأل جداله مع اليهود ملزمًا إياهم نبوة عيسى عليه السلام بالبراهين العقلية والنقلية. يذكر فى مناقشته مع اليهود:

نقول لهم: ما تقولون فى عيسى بن مريم؟

فيقولون: ولد يوسف النجار سفاحًا كان قد عرف اسم الله الأعظم يسخر به كثيرًا من الأشياء.

---

(١) أصول الدين للبغدادى (ص ١٦٠ ، ١٦١) ونهاية الإقدام للشهرستانى (ص٤٣١) والاقتصاد فى الاعتقاد (ص١٧٠ ، ١٧١).

(٢) إفحام اليهود للإمام المهتدى السموأل بن يحيى المغربى ٥٠٧ هـ تحقيق د/محمد عبد الله الشرقاوي، الناشر : دار الهداية، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.

فنقول لهم: أليس عندكم - فى أصح نقلكم - أن موسى عليه السلام قد أطلعه الله على الاسم المركب من اثنين وأربعين حرفًا وبه شق البحر وعمل المعجزات فلا يقدرون على إنكار ذلك، فإذا كان موسى قد عمل المعجزات بأسماء الله فلم صدقتم بنبوته وكذبتم بنبوة عيسى؟

فيقولون : لأن الله تعالى علم موسى الأسماء وعيسى لم يتعلمها من الوحى ولكنه تعلمها من حيطان بيت المقدس.

فنقول لهم : فإذا كان الأمر الذى يتوصل به إلى عمل المعجزات قد يصل إليه من لا يختصه الله به ولا يريد تعليمه إياه فبأى شيء جاز تصديق موسى؟

فيقولون: لأنه أخذها عن ربه.

فنقول: وبأى شيء عرفتم أنه أخذها عن ربه؟

فيقولون: بما تواتر من أخبار أسلافنا فإنا نلجئهم إلى نقل أسلافهم بأن نقول لهم: بماذا عرفتم نبوة موسى؟ فإن قالوا: بما عمله من المعجزات

قلنا لهم: وهل فيكم من رأى هذه المعجزات؟

ليس هذا لعمرى طريقًا إلى تصديق النبوات لأن هذا كان يلزم منه أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام باقية من بعدهم ليراها كل جيل فيؤمنوا بها.

وليس ذلك بواجب لأنه إذا اشتهر النبى فى عصره وصحت نبوته فى ذلك العصر بالمعجزات التى ظهرت منه لأهل عصره ووصل خبره إلى أهل عصر آخر وجب عليهم تصديق نبوته واتباعه لأن المتواترات والمشهورات مما يجب قبولها فى العقل وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه فى هذا الأمر متساوون.

ولَعَلَّ تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد لأن شهادة المسلمين والنصارى بنبوة موسى ليست إلا بسبب أن كتابيهما شهدا له بذلك فتصديقهم بنبوة موسى فرع من تصديقهم بكتابيهم"[1] .

هذا الحجاج العقلى الملزم لا يملك اليهود أمامه إلا التسليم والإيمان بنبوة عيسى عليه السلام، خاصة وأنه صادر من أحد أكابرهم الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام.

---

(١) إفحام اليهود (ص١٠٣ - ١٠٦).

وبعد هذا الجدال العقلى الملزم .. ينتقل بهم السموأل إلى الأدلة النقلية المسطورة فى كتبهم والتى تلزمهم هى الأخرى بالتصديق بعيسى عليه السلام، يقول:

نقول لهم: أليس فى التوراة التى فى أيديكم" لويا سور شبيط يهودا ومحط قيومبين رغلاف؟ وتفسيره "لا يزول الملك من آل يهوذا والراسم بين ظهرانيهم إلى أن يأتى المسيح" ولا يقدرون على جحده.

فنقول لهم: أفما علمتم أنكم كنتم أصحاب دولة وملك إلى ظهور المسيح عليه السلام ثم انقض ملككم؟ فإن لم يكن لكم اليوم ملك فقد لزمكم من التوراة أن المسيح قد أرسل وأيضًا فنقول لهم: أليس منذ بعث المسيح عليه السلام استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس وانقضت دولتهم وتفرق شملهم فلا يقدرون على جحد ذلك إلا بالبهتان ويلزمهم على أصلهم الذى فى التوراة أن عيسى بن مريم عليه السلام هو المسيح الذى كانوا ينتظرونه[1] وهذه الاستنباطات العقلية من نصوصهم النقلية تؤيد أيضًا ما أُلزموا به قبل ذلك من اعترافهم بنبوة عيسى عليه السلام.

وبعد هذه الإلزامات يتساءل الباحث عن السبب الحقيقى وراء إنكار اليهود لنبوة سيدنا عيسى إن القرآن الكريم يقدم لنا السبب الرئيسى فى إنكارهم لعيسى عليه السلام ولغيره من الأنبياء، وهذا السبب تفرعت عنه أسباب أخرى سنذكرها.

السبب الرئيسى لإنكارهم عيسى عليه السلام:

١ـ الهوى والاستكبار:

والهوى مرض نفسى لعين إذا أصاب إنسانًا أو جماعة سد عليهم منافذ التفكير الموصلة إلى الهدى والخير، واليهود كأمة أخذوا الحظ الوافر من بين الأمم فى اتباع أهوائهم ورفضهم للأنبياء وقتلهم لهم، يقول الله سبحانه عن اليهود ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[2] .

---

(١) إفحام اليهود (ص١٠٢ ، ١٠٣).

(٢) سورة المائدة الآية (٧٠).

والآية القرآنية تبرز أن اليهود إذا جاءهم رسول يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع يناصبونه العداء [١] . بالتكذيب تارة والقتل تارة أخرى والتعبير بالماضى تارة فى قوله"فريقًا كذبوا" وبالمضارع فى قوله "وفريقًا يقتلون"له توجيه كما يقول الرازى لأن الله تعالى بيَّن أنهم كيف كانوا يكذبون بعيسى وموسى فى كل مقام وكيف كانوا يتمردون على أوامره وتكاليفه.

وأما القتل: فقد وقع منهم لزكريا ويحيى عليهما السلام وكانوا قد قصدوا أيضًا قتل عيسى ولكن الله نجاه منهم.

فذكر التكذيب إشارة إلى ما فعلوه مع موسى عليه السلام لأنه قد مضى زمانه وذكر القتل بلفظ المضارع إشارة إلى معاملتهم مع زكريا ويحيى عليهما السلام لكون ذلك الزمان قريبًا فكان كالحاضر[٢] .

وفى سورة البقرة يربط القرآن الكريم بين الهوى والاستكبار، يقول تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [٣] .

وقد جاءت هذه الآية بعد التذكير برسالة عيسى عليه السلام وقوله"بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم "نهاية الذم لهم لأن اليهود كانوا إذا أتاهم رسول بخلاف ما يهوون كذبوه وإن تهيأ لهم قتله قتلوه، وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة فى الدنيا وطلبهم لذَّاتها والتَرَؤُّس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبوهم لأجل ذلك ويوهمون العوام من قومهم بأن الأنبياء كاذبون فى رسالتهم ودعوتهم[٤] . والكبر آفة خطيرة وهو صفة يدعيها الإنسان لنفسه وليست من خصوصياته بل من كمالات الله سبحانه فهو العزيز الجبار المتكبر، وهذا الادعاء ينشأ لدى الإنسان من الجهل والغباء والإعجاب كما يترسخ لعوامل أخرى مثل الجاه

(١) الكشاف (١/٦٣٣).
(٢) التفسير الكبير للرازى (١٢/٥٥).
(٣) سور البقرة الآية (١٨١).
(٤) التفسير الكبير للرازى (٣/١٩٨).

المادى أو الثراء أو التمكين فى الأرض أو كونه أفضل من غيره وهكذا .. واليهود من هذا الجانب تكبروا وتجبروا فقالوا ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[١]. وتارة أخرى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾[٢] . وتارة ثالثة ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾[٣].

ومن ثمَّ عقَّب الله بعد وصفهم باتباعهم الهوى والاستكبار علة ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤].

وفى قوله تعالى ﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[٥].

أى أن قلوبنا ممتلئة علمًا فلا نحتاج إلى علم أحد وقد لعنهم الله بكفرهم أى بسبب اجترائهم وافترائهم وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه[٦]، وقد كان اليهود لا يكترثون بما يقع منهم ويحسبون أن لا يترتب أى شر على ما يصنعون، ولكن الله رتب على أعمالهم وجزاهم عليها فعموا وصموا عن الحق لا يهتدون إليه، وبعد أن تاب الله عليهم رجعوا إلى ما كان منهم[٧] .

٢ـ المادية المفرطة التى سيطرت على اليهود:

من الأسباب التى جعلت اليهود ينكرون رسالة عيسى عليه السلام المادية المفرطة التى سيطرت عليهم وجعلتهم ينظرون إلى أنبيائهم من خلالها، فاليهود كانوا ينتظرون المسيح وتعلقت آمالهم بظهوره، وكانت صورة ذلك المسيح تأخذ أوصافًا متعددة فى فترات تاريخهم المختلفة، فقد انتظروا ملكًا فاتحًا مظفرًا من نسل داود، ولمَّا لم يتحقق لهم ذلك أطلقوه على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم إلى حد أنهم أطلقوا درجة المسيح على "قورش الفارسي" لتخليصه إياهم من الأسر البابلي، وأطلقوا لقب المسيح على بعض الولاة حين أعاد

---

(١) سورة المائدة الآية (١٨).
(٢) سورة آل عمران الآية (١٨١).
(٣) سورة آل عمران الآية (٢٤) وانظر الدعوة والإنسان (ص٤٣١ ـ ٤٣٣).
(٤) سورة البقرة ت الآية (٨٨)..
(٥) سورة المائدة الآية (٧١).
(٦) تفسير القرطبى (٢/٢٥).
(٧) تفسير ابن كثير (٢/٨٠).

لهم بناء البيت فى السنة الثانية للملك "داريوس" ولما وقعوا تحت الحكم الرومانى انتظروه مخلصًا لهم من الذل والعبودية، وكانوا ينتظرون أن يعيد إليهم دولتهم ويأتى لهم بالخيرات، وجعلوا له علامات من هذه العلامات أنه إذا حرك شفتيه بالدعاء ماتت جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود، ومن علاماته أيضًا أن الذئب والتيس يربضان معًا وأن الأسد يأكل التبن كالمعز، كل هذه صفات حددوها للمسيح المنتظر.

فلما جاء المسيح عليه السلام بدعوته التى تدعو إلى السماحة والبر والرحمة والعمل للآخرة والتبشير بملكوت الله، ولم يتحدث إلى الشعب باللغة التى كان ينتظرها منه، وكان يدعو إلى التأمل فى النفس وحب الغير والتواضع والإيمان العميق بالله، فى حين أن اليهود كانوا ينتظرون دعوة إلى الصراع المسلح وإعلانًا للجهاد الأكبر والأخير قبل الانتصار الخالد، إنه لم يقل لهم قوموا فالمسيح الذى اختاره يهوه معكم، بل قال مهددًا بالتوبة ليوم الحساب، وقال "دعوا ما لله لله وما لقيص لقيصر"[1]. لمّا جاء بهذا ولم يحقق لهم ما تخيلوه، كذّبوه لا لشيء إلا لأنه أراد أن يخرجهم من أوهاد المادية المفرطة التى انتكسوا فيها وكثيرا ما حاولوا الوقيعة بينه وبين الولاة من الرومان[2]، وكان المسيح عليه السلام ينجيه الله من مكرهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن اليهود مازالوا ينتظرون المسيح الذى تخيلوه يقيم لهم الدولة ويجمعهم من شتات الأرض ليتمتعوا بالخيرات فى الدنيا قبل الآخرة، حسب زعمهم[3].

وتبعاً لتكذيب اليهود للمسيح عليه السلام فقد وصفوه بأبشع الأوصاف وامتلأ التلمود بهذه الأوصاف مثل غشاش بنى إسرائيل ـ الأحمق، المجذوم[4]، ولا يكتفى التلمود بوصفه بهذه الأوصاف فى الدنيا بل يحدد مصيره فى الآخرة ويذكر عنه بأنه " موجود فى لجات الجحيم بين القار والنار وقد أتت به أمه من العسكرى "باندرا" عن

(١) متى الإصحاح ١٢/٣١.
(٢) انظر : هداية الحيارى (ص ٢٠٩) وقصص الأنبياء للنجار (ص٤٧٠) وتفسير المنار (٣ / ٢٥١) والمسيحية نشأتها وتطورها (ص٥٦ ، ٥٧)
(٣) انظر : مشكلة اليهود العالمية : فؤاد شبل (ص٨٠ ، ٨١) الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٠م ، وانظر الأمانات والاعتقادات لسعديا الفيومى.
(٤) التلمود تاريخه وتعاليمه (ص ٦١ ، ٦٢).

طريق الخطيئة، أما الكنائس النصرانية فهى قاذورات والواعظون فيه أشبه بالكلاب النابحة وقتل المسيحى من التعاليم المأمور بها [١] .

ويذكر التلمود عنه بأنه مجنون وهذا مطابق لما كان يعامله به " هيرودوس " ومعاصروه الذين وصفوه بأنه ساحر [٢] .

٣ـ محاولة عيسى ردهم إلى شريعة موسى التى انحرفوا عنها :

لقد تحولت شريعة موسى عليه السلام على أيدى اليهود إلى طقوس جامدة ليس فيها أدنى روح للتقوى ، فلما جاء المسيح عليه السلام بدعوته كشف انحرافاتهم ، إذ أن اليهود قد وصلوا إلى درجة لا يصل إليها أكابر المجرمين الطغاة من الانحراف خاصة رجال الدين منهم، فقد كانوا يشتغلون بالتجارة سرًا وأنشأوا حوانيت جانب الهيكل يبيعون فيها الحمام الذى تقضى الشريعة اليهودية تقديمه كقربان، وقد عمدوا إلى زيادة عدد المناسبات التى يتحتم على الشعب تقديم الحمام فيها فتضاعف بذلك مكاسبهم[٣] .

ولذلك نظر إليه القساوسة والطبقة الممتازة من اليهود بعين الحذر وكانوا يعدونه من أكثر الفوضويين خطورة وأضرهم بمصالحهم، وكان خطره فى نظرهم يتمثل فى دعوته التى من شأنها أن تثير فى نهاية الأمر بين مجموع الشعب حركة من تلك الحركات العنيفة الحمقاء التى يتشدد الرومان دائمًا فى قمعها، والتى تقلق أهل المعبد، كما كان خطره يتمثل فى أنه كان يحدث الطبقات الدنيا من الناس فى غير ما تحفظ بقصص ومقارنات لا يمكن أن يؤدى مغزاها إلا إلى إظهار عيوب طبقة رجال الدين وإضعاف مركزهم [٤] .

ثم كانت هناك فرق شتى من اليهود مثل الفريسيين والكتبة والصدوقيين الذين كانوا ينكرون البعث الأخروى ... كل هذه الفرق قد أحالت شريعة موسى إلى طقوس حرفية يقفون عند ألفاظها ولا ينفذون إلى لبها، فجاء المسيح وهاجمهم

---

(١) نقلاً عن قصة الديانات (ص٣٧٥).

(٢) من التلمود (ص٧٤) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣) المجتمع اليهودى : زكى شنودة (ص٢٩٣ ، ٢٩٤) الناشر مكتبة الخانجي.

(٤) المسيحية نشأتها وتطورها (ص٥٨).

وكشف رياءهم وحرصهم على الحياة ومتعها وسوف نعرض لنماذج من المحاورات بين عيسى وبين أحبار اليهود لنرى إلى أى مدى كان الصراع بين عيسى عليه السلام وبينهم..

عيسى يحاول من ناحية أن يردهم إلى شريعة التوراة الحقة وهم يحاولون بشتى الوسائل أن يحرجوا عيسى ويبينوا للشعب أنه يخالف شريعة موسى عليه السلام.

من ذلك مثلاً: أنهم كانوا لا يعملون يوم السبت وكانوا يمتنعون عن فعل الخيرات فيه، وكانوا يأخذون على عيسى العمل فى ذلك اليوم متهمين إياه بالخروج عن الشريعة.

ورد فى إنجيل متى "فى ذلك الوقت ذهب يسوع فى السبت بين الزروع فجاع التلاميذ وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون .. فالفريسيون لما نظروا قالوا له هوذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله فى السبت، فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لم يحل أكله ولا للذين معه بل للكهنة فقط، أو ما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت فى الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء ولكن أقول لكم إن هاهنا أعظم من الهيكل، فلو علمتم ما هو أنى أريد رحمة لا ذبيحة لما حكمتم على الأبرياء فإن ابن الله هو رب السبت أيضًا"[1]، فهم قد اعترضوا على مجرد الأكل يوم السبت فأرجعهم إلى ما كان من أحد أنبيائهم وهو داود حين أكل من خبز الهيكل. ومعنى كلام المسيح إن صح أن الضرورات تبيح المحظورات إن فرضنا جدلاً أن الراحة يوم السبت من شريعة موسى.

وحدث أيضًا أنه أراد أن يشفى مريضًا يوم السبت فاعترض الفريسيون على الإبراء يوم السبت فوبخهم المسيح عليه السلام وكشف ما يفعلونه فى خاصة أنفسهم من العمل يوم السبت على الرغم من تظاهرهم بتحريم العمل فيه على غيرهم.

ورد فى إنجيل متى: ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم وإذا إنسان يده يابسة فسألوه قائلين: هل يحل الإبراء فى السبوت لكى يشتكوا عليه؟ فقال لهم أى إنسان

---

(١) متى الإصحاح ١٢ : ١/٨.

منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه، فالإنسان كم هو أفضل من الخروف، إذًا يحل فعل الخير فى السبوت. ثم قال للإنسان مد يدك فمدها فعادت صحيحة كالأخرى فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه ليهلكوه(١).

من هذه النصوص نعلم أن محاولة عيسى عليه السلام رد اليهود إلى شريعة التوراة كانت تغيظهم وتجعلهم يتشاورون لقتله، فما بالنا بتكذيبه وعدم الإيمان به؟

وقد أورد إنجيل برنابا حوارًا بين أحد المتضلعين فى الشريعة اليهودية وبين عيسى عليه السلام، يرينا هذا الحوار إلى أى حد كان المسيح مصممًا على دعوة علمائهم إلى التمسك بجوهر الشريعة لا الوقوف عند ألفاظها.

وتوقفنا هذه المحاورة فى الوقت نفسه على مدى كراهية أحبار اليهود للمسيح عليه السلام، فقد كان رجال الدين ينظرون إليه على أنه جاهل يتطاول عليهم ويعتقد فى سذاجة أن الحكمة تحل محل العلم، وأن البصيرة من الممكن أن تغنى عن المنطق، إذ أنه كان يتحدث إليهم فى ثقة وقوة، لأنه كان يشعر بتأييد من الله فى نفسه ولم يكن ليعجبه منطقهم ولم يكن توثب عاطفته النظرية إلا ليتصادم مع تكبرهم المتشبث بالتدقيق إلى أقصى الحدود فى الأمور الدينية، فكان من الطبيعى أن تنشأ العداوة بين الطرفين (٢).

ورد فى إنجيل برنابا: "ودعا أحد المتضلعين من الشريعة يسوع للعشاء ليجربه فجاء يسوع إلى هناك مع تلاميذه وكثيرون من الكتبة انتظروه فى البيت ليجربوه، فجلس التلاميذ إلى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم، فدعا الكتبة يسوع قائلين: لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزًا؟

أجاب يسوع: وأنا أسألكم لأى سبب أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم تقولون لأولاد الآباء الفقراء قدموا وأنذروا للهيكل، وهم إنما يجعلون نذورًا من

(١) متى ١٢ : ٩ - ١٤.
(٢) المسيحية نشأتها وتطورها (ص٥٧ ، ٨٥).

النذر الذى يجب أن يعولوا به آباءهم وإذا أحب آباؤهم أن يأخذوا نقودًا يصرخ الأبناء إن هذه النقود نذر الله فيصيب الآباء بسبب ذلك ضيق أيها الكتبة الكذّابون المراءون أيستعمل الله هذه النقود؟

كلا ثم كلا، لأن الله لا يأكل كما يقول بواسطة عبده داود النبى هل آكل لحم الثيران وأشرب دم الغنم أعطنى ذبيحة الحمد وتقدم لى نذورك لأنى إن جعت لا أطلب منك شيئًا لأن كل الأشياء فى يدى وعندى وفرة الجنة .. أيها المراءون إنكم تفعلون ذلك لتملأوا كيسكم ولذلك تعشرون السذاب [١] والنعنع ما أشقاكم لأنكم تظهرون على عواتق الآخرين أحمالاً لا يطاق حملها، ولكنكم أنفسكم لا تحركونها بإحدى أصابعكم [٢].

والمحاورة تبين المسيح وهو مهتم بجوهر الأمور والكتبة مهتمون بغسل الأيدى قبل الطعام، وكانت مثل هذه المحاورات من الأسباب الرئيسة التى جعلت هناك تصادمًا بينهم وبين المسيح الذى شن حملة عنيفة على الكهنوت اليهودى الذى ادعى الحفاظ على الناموس بتمسكه فقط بالمظاهر والشكليات فاختنق بذلك المدخل الموصل إلى ملكوت السموات ألا وهو الأخذ بتعاليم الناموس نصًا وروحًا، تلك التعاليم التى بيَّن المسيح جوهرها وهو الحق والرحمة والإيمان [٣].

وكانت هناك محاولات من كل الفرق اليهودية لإحراج المسيح أمام تلاميذه، وإظهاره بمظهر الكاذب، ومن هذه المحاورات ما دار بينه وبين الصدوقيين [٤] الذين ينكرون الآخرة.

ورد فى متي: "فى ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون الذين يقولون ليس قيامه فسألوه قائلين يا معلم قال موسى إن مات أحدُ وليس له أولاد ويتزوج أخوه بامرأته

---

(١) السذاب : جنس نباتات طبية من الفصيلة السذابية. المعجم الوسيط (١/ ٤٢٤).

(٢) إنجيل برنابا: الفصل الثانى والثلاثون ١/ ١٩. ترجمة الدكتور خليل سعادة. مكتبة ومطبعة صبيح.

(٣) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية (ص ١٩٣).

(٤) الصدوقيين نسبة إلى صادوق أو صدوقيا وهذا كاهن كان موجودًا فى عهد سيدنا سلميان وهذه الفرقة من اليهود لا تعترف إلا بأسفار موسى الخمسة وينكرون التعاليم الشفوية، ولا يعتقدون فى الآخرة. انظر: مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام (ص١٢٥).

ويقيم نسلاً لأخيه وكذلك الثانى والثالث إلى السبعة وآخر الكل ماتت المرأة أيضًا ففى القيامة لمن من السبعة تكون الزوجة فإنها كانت للجميع؟ فأجاب يسوع وقال لهم تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله لأنهم فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء، وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب ليس الله إله أموات بل إله أحياء فلما سمع الجموع بهتوا من تعاليمه"(١) .

لقد فنَّد المسيح شبهتهم واعترافهم وإنكارهم للبعث وبيَّن أن سبب ضلالهم يرجع إلى أمرين:

الأول: جهلهم بما تحتويه كتبهم الدينية التى اعترفوا بها ويقصد بذلك الأسفار الخمسة، ثم أتى لهم بنص من الأسفار الخمسة: ليس الله إله أموات بل إله أحياء، ووجه دلالة المسيح بهذا النص أنه بالرغم من موت إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلا أن الله عز وجل لم يقل أنا كنت إلههم لأن الله ليس إله أموات بل إله أحياء.

الثاني: أنهم لا يتصورون قوة الله وقدرته على جمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادتها ثانيًا، ثم بيَّن لهم أنهم فى الآخرة لا يتزوجون لأن الزواج خاص بالدنيا لبقاء النسل أما فى الآخرة فلا حاجة إلى نسل فلا زواج(٢) كما يفسر النصارى.

كل هذه المحاورات كانت تهدف إلى إحراج السيد المسيح من وجهة نظر اليهود وكانت تظهر اليهود من جانب المسيح فى صورة الكذابين المرائين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويقولون ما لا يفعلون، فتنقل الأناجيل كثيرًا من الأوصاف القاسية التى رمى بها السيد المسيح علماء اليهود، فقد وصفهم بالأشرار، وأولاد الأفاعي، وورد فى متى: يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم"(٣). وورد فيه أيضًا: "قلب هذا الشعب

---

(١) متى ٢٨ : ٢٣ ـ ٣٣.

(٢) انظر: الكنز الجليل فى تفسير الإنجيل (١/ ٣٧٩) هكذا يعتقد النصارى أنه لا زواج فى الآخرة. وقد أثبتنا من خلال نصوص الأناجيل أن هناك زواجًا وطعامًا وشرابًا وسائر المتع الحسية فى الجنة. انظر رسالة اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام للباحث.

(٣) متى ١٢ ـ ٢٥ وانظر متى ١٢ ـ ٣٩.

قد غلظ وأذانهم قد ثقل سماعهم وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم"[١].

وقد امتلأ إصحاح كامل فى إنجيل متى من أوله لآخره بكل الصفات السيئة، فقد وصفهم بأكل أموال الأرامل ووصفهم بالجهل والعمى الرياء وأنهم أبناء قتلة الأنبياء وبالحيات ووصف مدينتهم المقدسة بأنها قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين[٢]، وكان كلامه موجهًا إلى الكتبة والفريسيين أبرز فرق اليهود، والذى يحلل نصوص هذا الإصحاح وغيره من الفقرات التى دار فيها حوار بين المسيح وبين علماء اليهود، يجد أن هناك نزاعًا مستمرًا كان يسود العلاقة بينهما[٣].

وكان طبيعيًا بعد أن يسمع العلماء اليهود هذا الهجوم المتواصل من المسيح أن يكذبوه وينكروا دعوته، بل ويهموا بقتله، يقول برنابا: "أما الكتبة والكهنة فلما أدركوا أنه ندَّد بتقاليد شيوخهم اضطرموا ببغضاء أشد وقسوا قلوبهم نظير فرعون ولذلك طلبوا فرصة ليقتلوه ولكنهم لم يجدوها"[٤].

٤ـ الموطن الذى نشأ فيه المسيح:

من الأسباب التى جعلت اليهود يرفضون نبوة عيسى ودعوته الموطن الذى نشأ فيه، وذلك لأن اليهود عنصريون يعتقدون أنهم شعب الله المختار، ولذلك نظروا إلى غيرهم نظرة احتقار وازدراء.

وقد نظروا إلى المسيح تلك النظرة واحتقروه واحتقروا الموطن الذى نشأ فيه وبدأ منه الدعوة..

ورد فى يوحنا: "فى الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل فوجد "فيلبس" فقال له اتبعنى وكان "فيلبس" من بيت صيدا من مدينة "أندراوس" و "بطرس" "فيلبس" وجد

---

(١) متى ١٣ ـ ١٦.

(٢) انظر: متى الإصحاح ١٣ بأكمله، ففى كل فقرة من فقراته التى بلغت تسعًا وثلاثين صفة من الصفات السيئة التى يتصف بها اليهود على لسان المسيح.

(٣) المسيحية نشأتها وتطورها (ص ٥٨).

(٤) متى ١٢ ـ ٢٥ وانظر متى ١٢ ـ ٣٩.

"نثنائيل" وقال له وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء "يسوع بن يوسف" الذى من الناصرة فقال نثنائيل أمن الناصرة يمكن أن يأتى شيء صالح؟ [١].
فما كان اليهود يتصورون أن يأتى المسيح من الجليل لأنهم كانوا ينظرون إليهم نظرة احتقار وكانوا يصفونهم بالمروق من الدين وكان المثل الشائع عندهم أن أهل الجليل متميزون بالعناد وصلابة الرأى وكانوا يسخرون من لهجتهم الريفية" [٢].

ادعاء اليهود قتل المسيح عليه السلام:

لقد ادعى اليهود أنهم قتلوا المسيح عليه السلام وصدَّقهم النصارى في ذلك وقد عرض القرآن الكريم ما دبره اليهود عليه السلام ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [٣]. أى لما مكر الذين أحس عيسى منهم الكفر من اليهود فحاولوا قتله أبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه وذلك لأن عيسى لما أخرجه قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به فذلك مكرهم الذى مكروه [٤].

ويصور القرآن تبجحهم وادعائهم قتل المسيح فى قوله ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [٥].

وقولهم رسول الله على الرغم من عدم اعترافهم به يأتي:

إما على سبيل السخرية والاستهزاء كقول فرعون ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [٦]، وكقول أهل مكة ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [٧].

---

(١) يوحنا ١ : ٤٣ ـ ٤٦.
(٢) المسيحية نشأتها وتطورها (ص ٤٧).
(٣) سورة آل عمران الآية (٥٤).
(٤) القرطبى (٩٨/٤) والمنار (٢٥٩/٣).
(٥) سورة النساء الآية (١٥٥ ـ ١٥٨).
(٦) سورة الشعراء الآية (٢٧).
(٧) سورة الحجر الآية (٦).

وإما أن يراد برسول الله: أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعًا لعيسى عليه السلام عما يذكرونه به لما أرادوا بمثله كقوله ﴿ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١).

والنصارى يعتقدون أن اليهود قتلوا عيسى عليه السلام يقينًا، واليهود يفتخرون أنهم قتلوه وصلبوه لأنه ادعى نسخ التوراة بعد أن ادعى النبوة ولم يقم عليها شاهد (٢).

وقد ورد فى التلمود بعض النصوص التى تفيد افتخار اليهود بقتل المسيح، من ذلك ما ورد فى التلمود فى إحدى طبعات إمستردام لسنة ١٦٤٥ " قبل صلب المسيح أعلن فى المدينة عن طريق النداء العام أن يحضر الذين يريدون الشهادة ببراءة المسيح ولكن أحدًا لم يتقدم، ويذكر التلمود أن المسيح عليه السلام رمى بالأحجار ثم صُلب مساء عيد الفصح" (٣).

تكذيب اليهود فى ادعائهم قتل المسيح:

لقد كذب الله اليهود فى ادعائهم قتل المسيح عليه السلام ونفى قتله أو صلبه لا من اليهود ولا من غيرهم، يقول تعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ (٤). فقد نجى الله عيسى من القتل وألقى عليه شبه رجل غيره.

وقد رُوى أن رهطًا من اليهود سبوا عيسى عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخوا قردة وخنازير، فبلغ ذلك يهوذا رأس اليهود فجمع اليهود فاتفقوا على قتله فساروا إليه ليقتلوه فأدخله جبريل عليه السلام بيتًا ورفعه منه إلى السماء ولم يشعروا بذلك فدخل "طيطانوس" ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم، وألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام عليه، فلما خرج قتلوه وصلبوه .. هذا ما أورده الألوسى فى تفسيره (٥). مع آراء كثيرة.

---

(١) سورة الزخرف الآية (٩). وانظر الكشاف (١/٥٧٩).

(٢) انظر الأعلام للقرطبى (ص٤١٢) والتصريح بما تواتر فى نزول المسيح.

(٣) نقلاً عن التلمود وتاريخه وتعاليمه (ص٦٢).

(٤) سورة النساء الآية (١٥٧).

(٥) روح المعانى (٦/١٠).

وبعض المفسرين يذهب إلى أن عيسى عليه السلام لما همَّ اليهود بقتله كان مع عيسى عشرة من أصحابه فقال لهم من يشترى الجنة بأن يُلقى عليه شبهي؟ فقال واحد منهم أنا، فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فأخرج وقتل ورفع[1]. عيسى عليه السلام إلى السماء حيًا.

---

(١) اختلف العلماء فى قضية رفع المسيح ونزوله إلى الأرض قبل قيام الساعة. واستدلوا على ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

فالآيات القرآنية مثل وقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ سورة آل عمران الآية : ٥٥

ومثل قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ سورة النساء الآية : ١٥٩. وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ سورة الزخرف الآية : ٦١، ويستدلون بأحاديث وردت فى البخارى ومسلم وكتب السنة بلغت حوالى ستًا وسبعين حديثًا أوردها الشيخ محمد أنور شاه الكشميرى الهندى فى كتابه "التصريح بما تواتر فى نزول المسيح" وهذه الأحاديث قال عنها الحافظ ابن كثير : إنها بلغت حد التواتر منها ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها".

ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾سورة النساء آية : ١٥٩،

وانظر التصريح بما تواتر فى نزول المسيح (ص٩١ ت ٩٣).

وذهب فريق آخر من العلماء: إلى أن المسيح عليه السلام مات كما يموت سائر البشر ولم يرفع بجسده على السماء وإنما رفعت روحه .. أما أحاديث الرفع والنزول فلها تخريجان: = أحدهما : أنها أحاديث آحاد تتعلق بأمر اعتقادى والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي.

ثانيهما: تأويل نزوله وحكمه فى الأرض بغلبة روحه ورسالته على الناس. تفسير المنار (٢٦/٣ ـ ٢٦١). وهذا ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده ولكن تلميذه الشيخ رشيد رضا ردَّ رأى الشيخ محمد عبده قائلاً: (ما قاله الأستاذ الأمام فى الدرس ظواهر الأحاديث الواردة فى ذلك تأباها) المنار (٢٦/٣ ـ ٢٦١). ورأى الشيخ رشيد رضا هو الأقرب إلى الحق وإلى روح السنة خاصة بعد الأحاديث التى جمعها الشيخ الكشميرى وقال عنها ابن كثير إنها بلغت حد التواتر، . ولكن أحد العلماء المحدثين يعرض رأى الشيخ شلتوت القائل بعدم نزول المسيح فى آخر الزمان وعدم رفعه أصلاً إلى السماء، ثم يعلق عليه قائلاً: (ورأى الشيخ شلتوت يمثل الاتجاه العقلى فى فهم قضية النزول وهذا الاتجاه فيما أظن أقرب إلى روح الإسلام وأكثر تمشيًا مع طبيعته =

ورأى آخر يذهب إلى أن رجلاً منافقاً أراد أن يدل اليهود على عيسى عليه السلام وبالفعل أخذهم ليدلهم عليه فدخل بيت عيسى فرفع عيسى عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى[١].

وعلى كل الوجوه ومع اختلاف الروايات فى تحديد شخصية المقتول فإن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب وإنما ألقى شبهه على رجل آخر سواء أكان من حوارى عيسى عليه السلام أم كان من المنافقين أم من الجنود الذين دخلوا عليه لقتله عليه السلام.

أما قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾[٢].

فالذين اختلفوا فيه إما أن يكونوا من النصارى وهؤلاء على ثلاث فرق: ففرقة منهم ذهبت إلى أن المسيح صُلب ولكن الصلب كان من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ولذلك لا يرون فى قتله أى مهانة أو ذلة.

وفرقة ذهبت إلى أن القتل والصلب وصلا إلى اللاهوت بالإحساس والشعور لا بالمباشرة.

والفرقة الثالثة: ذهبت إلى أن القتل والصلب وقعا بالمسيح الذى هو جوهر متولد من جوهرين، وقد أقر مجمع نيقية صلب المسيح وقتله[٣].

= وما أحوجنا إلى هذه الرؤية العقلية فى فهم العقائد الدينية على وجه الخصوص) قصة الأديان (ص٢٣٦) للدكتور رفقى زاهر، وانظر: تعليق الدكتور أحمد حجازى السقا فى إظهار الحق (ص٥١٢).

ولا أدرى أى قرب إلى روح الإسلام فى ردَّ قضية رفع المسيح ونزوله وأيهما أسلم وأحكم أن نتمسك بالنصوص التى بلغت حد التواتر أو نعمل العقل فى تأويلها؟ ثم هل الحاجة إلى إعمال العقل فى العقائد؟ أو فيما لا نص فيه؟ إن الأولى أن نعمل العقل فى المسائل الاجتهادية، لأن فتح باب العقل فى الأمور العقائدية أمر يثير الغرابة حقًا لأنه سيجعل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية خاضعة لرؤية العقل وقبوله أو رفضه. وهذا يختلف باختلاف من يعمل عقله حسب هواه، وفى ذلك فتنة ما بعدها فتنة ذاق المسلمون ويلاتها قديمًا ثم هاهم حديثًا يعودون إليها.

(١) الكشاف للزمخشرى (١/٥٧٩، ٥٨٠).

(٢) سورة النساء الآية (١٥٧).

(٣) انظر: الرازى (١١/١٠٠، ١٠١) والألوسى (٦/١٠، ١١) والملل والنحل للشهرستانى (ص٥٠ - ٥٢) بهامش الفصل لابن حزم.

وإما أن يكون الذين اختلفوا فيه من اليهود وذلك لأنهم لما هموا بقتل المسيح عليه السلام قالوا إن كان المسيح قد قُتل فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا الذى قُتل فأين المسيح؟ وقولهم هذا جعلهم فى شك من الأمر ولذلك كذب الله اليهود والنصارى فى ادعائهم واعتقادهم قتل المسيح،

ويعتبر القرطبى تصديق النصارى لليهود فى تلك المسألة من حماقات النصارى وجهلهم، إذ كان من المفروض عليهم أن يكذبوا اليهود كما كذَّبوهم فى مسائل كثيرة،

اليهود والنصارى ليس عندهم خبر يقينى فى قتل المسيح وصلبه:

مما يؤكد أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب أن اليهود ليس عندهم فى كتبهم ما يفيد ذلك ولا يوجد فى تاريخهم الدينى شيئًا من هذا، فإذا تكلم اليهود عن المسيح وقتله فليس ذلك لأنه مثبت فى تواريخهم المأثورة عن الأحبار والآباء، ولكن لأنهم يسمعون ما يقوله المسيحيون من أن المسيح جاء وقتله اليهود.

يقول صاحب الفارق بين المخلوق والخالق: "فأما اليهود فلا إجماع عندهم ألبتة وهذه كتبهم موجودة بين أيدينا فلم نجد فيها شيئًا يوافق ما تحكيه النصارى عنهم"[(١)].

ولكن الشيخ "عبد الوهاب النجار" يذكر أن: الدكتور "إسرائيل ولفستون "أخبره أن مسألة قتل المسيح موجودة فى التلمود ولكن اليهود أخرجوها منه حتى لا يعثر عليها أحد من الأمم التى يقيم بينهم اليهود[(٢)]. فيكون ذلك مصدر قلاقل" [(٣)]. وقد يكون هذا صحيحًا لأن النصوص المتناثرة التى عثر عليها العلماء تشير إشارات خاطفة إلى ذلك، وإن كان ذلك غير موجود منذ زمن طويل أى منذ القرن السادس

---

(١) الفارق بين المخلوق والخالق (ص٢٨٠ ، ٢٨١)، الأعلام (ص٤١٦).

(٢) ومن العجيب بحق أن اليهود قاموا بمجهود ضخم وعثروا على وثائق وقدموها إلى المجمع المسكونى تثبت أنهم لم يقتلوا المسيح حرصًا منهم على كسب الرأى ضد الإسلام، بينما كان اليهود يفعلون ذلك كان الإعلام الإسلامى يحرص على مناهضة هذا الاتجاه ويؤكد ما يردده النصارى من أن اليهود هم الذين قتلوا المسيح عليه السلام ، وهكذا يضحى رجال السياسة بحقائق دينهم وقرآنهم للحيلولة دون حصول اليهود على مزيد من التأييد عند النصارى. انظر: قصة الأديان (ص٢٣٠).

(٣) قصص الأنبياء للنجار (ص٥١٣، ٥١٢).

الهجري، لأن القرطبى أشار إلى إخفاء اليهود لمسألة قتل المسيح، والقرطبى توفى سنة ٦٧١ هـ. وكون قتل المسيح لم يُجمع عليه من اليهود أو يعرفه أحبارهم ولا يعرفه عامتهم يؤكده قول الله تعالى ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) ﴾[1].

أما أن النصارى لا علم لهم بذلك، فإن علماء مقارنة الأديان قد درسوا مسألة قتل المسيح وصلبه كما يزعم اليهود، وكما تعتقد النصارى وانتهوا إلى أن:

١ - أن صلب المسيح دعوى لا دليل عليها لأن كتب اليهود والنصارى لا يصح الاستدلال بها فى تعيين ذات المصلوب لوجود الاختلاف بين اليهود والنصارى فى ذلك حول الصلب ووقته ومكانه وهذا دليل على أنهم فى شك من ذلك كما أخبر القرآن الكريم[2].

٢ - أن النصارى إذا استدلوا على الأناجيل فى دعواهم، فإن الإناجيل لم تخلُ من التحريف والتبديل، ولم تنقل بسند متواتر، ولو سلمنا أن الأناجيل نقلت متواترة فإن الاختلاف بين رواياتها يبين أنها لم تنص على أن المصلوب هو المسيح بعينه بل هى محتملة أن يكون هو أو غيره[3].

٣ - أن روايات الأناجيل حول قضيتى الصلب والقيامة تعتبر من المشاكل المعقدة جدًا فى الأناجيل، والتى تكفى بمفردها لأن تنفى عن الأناجيل أدنى قدسية، وانتهت مجموعة الأبحاث الغربية الحديثة فى علم مقارنة الأديان إلى أن روايات الصلب تعتبر بحق مجموعة المشاكل التى تحتويها الأناجيل[4].

٤ - أن عقيدة الصلب والفداء عقيدة وثنية انتقلت إلى المسيحية عن طريق الأمم الوثنية وبالذات عن طريق بولس الذى أفسد المسيحية بما أدخله من زيادات عليها وعلى رأسها صلب المسيح وقيامته[5].

---

(١) سورة النساء الآية (١٥٧).

(٢) الفارق بين المخلوق والخالق (ص٢٤٨ ـ ٢٥٠)، (ص٢٨٢ ـ ٢٩٨).

(٣) الإعلام بما فى دين النصارى من أوهام (ص٤١٢) وما بعدها.

(٤) انظر: المسيح فى مصادر العقائد المسيحية (ص٢٨٢) وانظر ص (١٩٠ـ ٢٨٢) وانظر الأسفار المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة (ص١١٧ ت ١٢٥).

(٥) انظر: المسيحية نشأتها وتطورها (ص٨٨ ت ١٠٨))، وقصص الأنبياء للنجار (ص٥١٤ ت ٥١٦).

إن بولس قد تبنى فكرة سفك دم المسيح كفارة عن خطايا البشر وروج لها فى رسائله، تلك الرسائل التى لم تكتب أقدمها إلا بعد رفع المسيح بأكثر من ٢٠ عامًا، فلقد كان الصلب وسفك الدم هو ما عزم بولس على ألا يعرف من المسيحية شيئًا غيرها[١]. يقول: "إنى لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبًا"[٢].

٥ - من الممكن أن يقول قائل إنّ اليهود والنصارى معذورون فى اعتقادهم قتل المسيح وصلبه، لأن القرآن الكريم ذكر أنه شبه لهم.

نقول:

إن عذرهم ممكن أن يقبل قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، أما بعد بعثته فإن العذر يزول عنهم، لأن القرآن الكريم جاء بالحق فى هذه المسألة، وهم مطالبون أن يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ويصدقوا بالقرآن الكريم.

---

(١) المسيح فى مصادر العقائد المسيحية (ص١٩١ - ١٩٢).

(٢) رسالة كورنثوس الأولى ٢/٢،

المبحث الثاني
إنكار اليهود والنصارى لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

وضوح الحق لدى أهل الكتاب فى شأن محمد:

إن المتتبع لأخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم يرى أنهم كانوا ينتظرون مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، بل إن منهم من ترك وطنه على ما فيه من خصب ونماء ورحل إلى جزيرة العرب ليكون على مقربة من المدينة المنورة التى علموا أن فيها هجرته وتفصيل ذلك كالآتي:

أولا: اليهود وترقبهم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم:

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن شيخ من بنى قريظة قال: قال لى هل تدرى عمَّ كان إسلام ثعلبة بن سُعيَّة وأسد بن سُعية وأسد ابن عبيد نفر من بنى هذل أخو بنى قريظة كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا ساداتهم فى الإسلام. قال: قلت لا؟ قال: فإن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له: ابن الهيبان قَدِمَ علينا قبيل الإسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلى الخمس أفضل منه فأقام عندنا فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن "الهيبان" فاستسق لنا فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة فنقول له: كم؟ فيقول: صاعًا من تمر أو مدين من شعير. قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستقى الله لنا فو الله ما يبرح محله حتى تمر السحابة ونُسقي، قد فعل ذلك غير مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث قال: ثم حضرته الوفاة عندنا فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجنى من أرض الحمر والخير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: إنك أعلم قال: فإنى إنما قدمت هذه البلدة أَتَوَكَف خروج نبى قد أظل زمانه وهذه البلدة مهاجره فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه وقد أظلكم زمانه فلا تُسبقن إليه يا معشر اليهود فإنه يُبعث بسفك الدماء، وسبى الذراى، والدماء ممن خالفه فلا يمنعكم ذلك منه.

فلـما بُعـث رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفتـية وكانـوا شـبابًا أحداثًا: يا بنى قريظة والله إنه للنبى الذى كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى والله إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم [١].

فهذا النص يبين إلى أى مدى كان رسول الله معروفًا قبل بعثته إلى الحد الذى يترك ابن الهيبان وطنه وأهله وهى بلاد مليئة بالخير كما يقول ويأتى إلى بلاد جرداء لا يحمله على ذلك إلا رجاء أن يكون قريبًا من البلد التى سيهاجر إليها النبى صلى الله عليه وسلم، بل إن اليهود كانوا يستنصرون بالنبى صلى الله عليه وسلم إذا تقاتلوا مع المشركين الذين لا كتاب لهم ولا علم عندهم.

فقد روى ابن هشام عن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود. كنا أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كان يتوعدوننا فبادرناهم إليه فآمنا به، وكفروا به ففينا وفيهم نزلت تلك الآيات من سورة البقرة ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾** ﴾ [٢].

وفى رواية أخرى أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه قال لهم "معاذ بن جبل" و "بشر بن البراء" و "داود بن سلمة" :يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٢١٩، ٢٢٠).

(٢) سورة البقرة الآية (٨٩) وانظر سيرة ابن هشام (١/٢١٨)، ولباب المنقول فى أسباب النزول (١٢ ،١٣).

بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال "سلام بن مشكم" أحد بنى النضير: ما جاءنا بشئ نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم"[١]. فأنزل الله ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾

وهناك كثير من الروايات[٢]. أوردها كُتاب السيَّر عن معرفة اليهود بالنبى وانتظارهم له وكفانا يقينًا إخبار القرآن الكريم عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنهم كانوا يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم.

يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

ويقول عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤].

ويقول أستاذنا الدكتور / عبد الله الشاذلى :

" واللفظتان ليستا مترادفتين تمام المرادفة ولا يطلقان على جهة واحدة بل تنصرف كلمة العلم إلى الحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ومنبع هذا العلم هو الأخبار المقدسة وحدها ، وتطلق لفظ المعرفة على النبى وصفاته ومصدر المعرفة يرد عن طريق الوحى الحق ويرد عن طريق الرؤية والملاحظة المستمرة والتأكد من مطابقة الصفات المبثوثة فى التوراة والإنجيل على ذات النبى صلوات الله وسلامه عليه وحده "[٥].

وهذا العلم وتلك المعرفة هما ما جعلا " عبد الله بن سلام " يقول لعمر بن الخطاب حين سأله أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك ؟ فقال : نعم وأكثر بعث الله أمينه فى سمائه إلى أرضه بنعته فعرفته ، وابنى لا أدرى ما كان من أمه .

ويعلق القرطبى على قوله تعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾

---

(١) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢١٨) ولباب المنقول فى أسباب النزول ص (١٢ ، ١٣).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢١٩ ، ٢٢٠).

(٣) سورة البقرة الآية (١٤٦)،

(٤) سورة الأنعام الآية (٢٠)

(٥) الدعوة والإنسان ص (٤١٥) .

بقوله: " وخص الأبناء بالمعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه "(١)

وهو ملحظ دقيق من الإمام القرطبى .

وقد نشط علماء مقارنة الأديان فاستخرجوا البشارات التى وردت فى العهد القديم ، والتى تُعلم اليهود بصفات محمد صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه وتعالي﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾ ﴾(٢).

أى باسمه ونعوته الشريفة بحيث لا يشكون أنه هو ، ولذلك عدل عن أن يقال : يجدون اسمه أو وصفه مكتوباً وجاء بلفظة عندهم لزيادة التقرير وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضرة عندهم لا يغيب أصلاً (٣).

فقد ورد فى سفر التثنية ما نصه :

" يقيم لك الرب إلهك نبياً ومن وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلبت من الرب فى حوريب يوم الاجتماع قائلاً لا أعود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت قال لى الرب قد أحسنوا فى ما تكلموا أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فيه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، والذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وإن قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو كالكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه "(٤)

---

(١) القرطبى (٢ /١٦٢ ، ١٦٣) و الجلالين ص (٢٠) .

(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٧) .

(٣) روح المعانى للآلوسى (٩/ ٨٠) .

(٤) سفر التثنية ١٨ - ١٥

وهذا النص يدعى النصارى البروتستانت أنه بشارة بعيسى عليه السلام ويدعى اليهود أنه بشارة بيشوع ، ليس الأمر كما يزعمون وإنما هو بشارة بالرسول صلى الله عليه وسلم من عشرة وجوه [(١)] هى :

الأول : أن اليهود المعاصرين لعيسى كانوا ينتظرون نبياً آخر مبشراً به غير عيسى ومن ثمَّ فلا يكون المبشر به يُشوع " ولا عيسى عليهما السلام .

الثانى : أنه وقع فى هذه البشارة " مثلك " ويشوع " وعيسى " عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه ا لسلام للآتى :

أ ـ لأنهما من بنى إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى وهذا ما يدل عليه ما ورد فى سفر التثنية " ولم يقم بعد بنى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجهاً لوجه " [(٢)] فإن قام أحد فى بنى إسرائيل مثل موسى يلزم تكذيب ذلك النص .

ب ـ أنه لا مماثلة بين " يشوع " وبين "موسى" عليهما السلام ، لأن موسى صاحب كتاب وشريعة "ويشوع" ليس معه كتاب وشريعة ، بل هو متبع لشريعة موسى عليه السلام . كما لا توجد مماثلة بين موسى وعيسى لأن عيسى كان إلهاً ورباً على زعم النصارى ، وأن موسى كان عبداً له ، كما أن عيسى عليه السلام صُلب من أجل أمته ، كما يزعم النصارى ، وموسى لم يُصلب من أجل أمته ، وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل و الطهارات والمحرمات بخلاف شريعة عيسى فإنها لا شيء فيها من ذلك ثم إن موسى كان رئيساً مطاعاً فى قومه وعيسى ما كان كذلك

الثالث : أن هذه البشارة فيها لفظ "من بين إخوتهم" ولاشك أن الأسباط الإثني عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المبشر به منهم لقال "منهم" لا من بين إخوتهم "ويشوع" وعيسى عليهما السلام كانا من بنى إسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما .

---

(١) إظهار الحق (٥٠٨).

(٢) سفر التثنية (٣٤ - ١٠) .

الرابع : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ"سوف أقيم" ويشوع" كان حاضراً عند موسى عليه السلام داخلاً فى بنى إسرائيل نبياً فى هذا الوقت ، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ ؟

الخامس : أنه ورد فى هذه البشارة لفظ "أجعل كلامى فى فمه" وهو إشارة إلى النبى عليه الصلاة والسلام الذى سينزل عليه القرآن وإلى أنه سيكون أميا وهذا لا يصدق على يشوع لانتفاء كلا الأمرين فيه

السادس : أنه قد ورد فى هذه البشارة "ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك" وهذا الانتقام ليس مقصوداً منه العذاب الأخروى ، لأن كل الأنبياء سيعذب مخالفيهم فى جهنم ولكن الانتقام يراد به الانتقام التشريعى ، فظهر بهذا الكلام أن المبشر به يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره ، وعيسى ليست لديه شريعة فيها أحكام الحدود والقصاص والجهاد .

السابع :أنه صرح فى هذه البشارة بأن النبي الذى ينسب إلى الله ما لم يأمره به يقتل فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً لكان قد قتل ، ومحمد لم يقتل ولم يقدر عليه أحد حتى لحق بالرفيق الأعلى ، وعيسى قُتل وصُلب على زعم اليهود والنصارى ، فلو كان هو المقصود بتلك البشارة للزم أن يكون نبياً كاذباً كما يقول اليهود عليهم اللعنة .

الثامن :أن الله بيَّن علامة النبى الكاذب أن تكون أخباره عن الغيب ليست صادقة . والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر عن أمور غيبية ووقعت كما أخبر صلى الله عليه وسلم فيكون صادقاً .

التاسع :أن بطرس قال "فتوبوا" وارجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ويرسل يسوع المبشر به لكم قبل الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شيء التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر[١] ومن تأمل عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول يكفى لإبطال الزعم أن هذه البشارة فى حق عيسى عليه السلام .

---

(١) أعمال الرسل ٣ - ٢٠ : ٢٢

العاشر : أن علماء اليهود منهم من أسلم اعترافاً بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكونه مبشراً به فى التوراة [١] .

ثانيًا: ترقب بعض النصارى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم:

إذا كنا قد أثبتنا من خلال الروايات المتعددة أن اليهود كان عندهم علم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم فإن النصارى أيضًا كانوا يعرفون صفاته صلى الله عليه وسلم، ولكن لابد وأن نسجل بداية أن عداوة النصارى للرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن كعداوة اليهود، فالنصارى فى الجزيرة العربية على الأقل لم يدخلوا فى صراع حاد مع الإسلام والمسلمين كما فعل اليهود.

وهم إن خالفوا الإسلام فى عقائده ولم يدخلوا فيه إلا أنهم فى الوقت نفسه كانوا أقل صياحًا من اليهود وأقل حقدًا على الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم قد اعترفوا بداية بأن محمدًا على الحق وأنه النبى المنتظر الذى بشر به عيسى وموسى عليهما السلام، ووردت روايات متعددة تفيد معرفة النصارى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، نذكر من النصارى الذين بشروا بالنبى صلى الله عليه وسلم:

(١) ورقة بن نوفل: وكان شيخًا نصرانيًا يقيم فى مكة عنده علم الكتاب وقد أخبرته خديجة بما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم فى غار حراء فأخبرها أنه النبى المنتظر.

ويذكر ابن إسحاق أن النبى أخبره أيضًا.. يقول ابن إسحاق: فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حواره وانصرف صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل، وهو يطوف بالكعبة فقال: يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت. فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ورقة والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة،ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه [٢] ولئن أدركتُ ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه ثم

---

(١) انظر : إظهار الحق لرحمت الله الهندى ص (٥٠٨ -٥١٣) بتصرف وانظر تعليق الدكتور احمد حجازى السقا على كلام بطرس ص (٥١١).

(٢) الهاءات الأربعة للسكت وليست ضمائر.

أدنى رأسه منه فَقَبَلَ يافوخه[١] ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله" [٢]

"فورقة بن نوفل" من داخل الجزيرة العربية يبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم، لأن صفاته كان قد عرفها من التوراة والإنجيل.

(٢) ونأتى إلى رجل آخر من خارج الجزيرة العربية ظل متنقلاً من مكان إلى مكان باحثًا عن الحق إلى أن دله بعض النصارى عليه صلى الله عليه وسلم، هذا الرجل هو "سلمان الفارسي" ذلك أنه ترك دين آبائه من عَبَدَةِ النار، وظل ينتقل من مكان إلى مكان حتى انتهى به المطاف إلى نصرانى دله على الجزيرة العربية التى سيبعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن هشام "فلما مات رغيب لحقت بصاحب عمورية فأخبرته خبرى فقال أقم عندى فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم قال: واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنمة، قال: ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له: يا فلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ثم أوصى بى إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك فإلى من توصى بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أى بنى والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه ولكنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل"[٣].

وهذا يدل على أن معرفة النصارى بالنبى صلى الله عليه وسلم كانت مؤكدة وكانت معروفة بالتفاصيل الجزئية، البلد التى يبعث فيها، والبلد التى يهاجر إليها، وأشياء شخصية تمثلت فى قبوله الهدية ورفضه الصدقة، وأشياء خلقية منها خاتم النبوة بين كتفيه.

---

(١) اليافوخ: وسط الرأس

(٢) سيرة ابن هشام (١/٢٤٦ ، ٢٤٧).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٢٢٣).

وقد اجتهد علماء الإسلام وأوضحوا تلك البشارات[1] ، ومن تلك البشارات ما ورد فى يوحنا" إن كنتم بعدى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب منكم مُعَزِّى آخر ليمكث معكم إلى الأبد" [2] تعنى الفار قليط الذى يعنى كثير الحمد.

ومن العجيب أن الترجمات العربية القديمة للأناجيل كانت تذكر كلمة "الفار قليط" ، ولدق أضاف النصارى تحريفًا جديدًا يضم إلى التحريفات السابقة، انظر على سبيل المثال الترجمة العربية المطبوعة ١٨٢١ م، ١٨٣١م، ١٨٤٤م فى لندن والتى كان ينقل منها صاحب إظهار الحق [3]

وقارن بين هذه الطبعات وبين طبعة الكتاب المقدس لعام ١٩٨٧م فإن كل الألفاظ التى فيها الفارقليط فى طبعات لندن أُثبت بدلاً من تلك الألفاظ كلمة "المُعَزِّى" وكلمة "المُعزِّى" لا تعبر بالضبط عن البشارة باسم النبى كما تعبر كلمة "الفارقليط".

يقول الشيخ "النجار" : إنه جمعته رابطة صداقة بالمستشرق الإيطالي"كارلونلينو" وفى ذات ليلة يقول: "قلت له وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراة فى آداب اللغة اليونانية القديمة ما معنى "بيريكلتوس "أجابنى بقوله: إن القسس يقولون أن هذه الكلمة معناها "المُعَزى" فقلت (الشيخ النجار) إنى أسأل الدكتور "كارلونيلنو" ولست أسأل قسيسًا فقال: معناها الذى له حمد كثير. فقلت : هل يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ قال : نعم. فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسمائه أحمد، فقال: يا أخى أنت تحفظ كثيرًا، ثم افترقنا وقد ازددت تثبتًا فى معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[4] وإن كان المفروض أن يزداد الإنسان تثبتًا وثقة كلما قرأ القرآن، لا كلما سمع شيئًا من أهل الكتاب الذين قد يكذبون أو يصدقون.

---

(١) منها يوحنا ١٤ـ ١٥/١٨ ١٦ - ١٧، -٦٥ –٦٣: ٢٧، ١٦ - ١، حتى ١١ ، ١٤ ، ١٥، وغيرها كثير.

(٢) يوحنا ١٤ – ١٧ : ١٥.

(٣) إظهار الحق ص (٥٣٨، ٥٣٩) تحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا ، دار التراث العربي، وانظر: هداية للجيارى ص (١١٦) وما بعدها، وانظر للأهمية كتاب اللواء أحمد عبد الوهاب: اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس. فقد أورد نماذج للاختلافات بين الترجمات المختلفة للكتاب المقدس وهى من وجهة نظرنا تنفى أدنى قدسية عن العهدين القديم والجديد وتجعلنا نزداد ثقة بأن التحريف عند النصارى لم يتوقف أبدًا.

(٤) سورة الصف الآية (٦) وانظر قصص الأنبياء هامش ص (٤٧٣).

وقد أورد علماء مقارنة الأديان قديمًا وحديثًا بشارات الإنجيل برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأورد صاحب إظهار الحق منها كثيرًا نكتفى منها بواحدة فقط.

ونظرًا لأن ترجمات العهدين الجديد والقديم قد تغيرتا كثيرًا عن النسخة التى ينقل منها "رحمت الله الهندي" فإننا سنعتمد على نقله مشيرين إلى النسخة المترجمة التى كان ينقل عنها.

يقول: "نقل "يهوذا" الحوارى فى رسالته الخبر الذى تكلم به "أخنوخ" الرسول الذى كان سابعًا من آدم عليه السلام ومن عروجه إلى ميلاد المسيح ثلاثة آلاف وسبع عشرة سنة على زعم مؤرخهم وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ م يقول"الرب قد جاء فى ربواته المقدسة ليدائن الجميع ويبكت الجميع المنافقين على كل أعمال نفاقهم التى نافقوا فيها وعلى كل الكلام الصعب الذى تكلم به ضد الله الخطاة المنافقون".

وينبه صاحب إظهار الحق قبل استخراج البشارة من النص السابق على معانى كلمات (رب - قديس، ومقدس) فى الأسفار المقدسة فالرب يشيع استعماله فى معنى المعلم والمخدوم ولفظ القديس والمقدس يطلق فى العهدين إطلاقا شائعًا.

وبعد أن يأتى بشاهد من العهد الجديد على استخدام هذه الألفاظ يقول: "إن المراد بالرب هنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبالربوات المقدسة الصحابة، والتعبير عن مجيئه (بقد) جاء لكونه أمرًا يقينيًا، ولقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم فى ربواته المقدسة فَدَانَ الكفار وبكّت المنافقين والخطاة على أعمال النفاق وعلى أقوالهم القبيحة فى الله ورسله"[١].

وهناك بشارة واضحة ومشهورة يستدل بها كل علماء مقارنة الأديان تقريبًا على البشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم وهى وإن كانت واردة فى العهد القديم إلا أنها حجة على النصارى، لأن قدسية العهد القديم مثل قدسية العهد الجديد عندهم.

هذه البشارة هى ما ورد فى سفر التثنية : "جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم"[٢].

---

(١) انظر: اظهار الحق ص (٥٣١ - ٥٥١).

(٢) سفر التثنية ٣٣ - ١ : ٣.

فقوله "فاران" هى جبال مكة، لأنه ليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف فى ذلك، فإن ادعى أحد أنها غير مكة فهذا من الإفك والتحريف.

ويستنبط "ابن تيمية" من دلالة الألفاظ التأكيد على رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: "قال فى الأول جاء أو ظهر، وفى الثانى أشرق، وفى الثالث استعلن، وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى، وأما بنزول القرآن فهو مميز له ظهور الشمس فى السماء، ولهذا قال: "واستعلن من فاران فإن النبى صلى الله عليه وسلم ظهر.به نور الله وهداه فى مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت فى مشارق الأرض ومغاربها"[1] .

ومما يدل على البشارة بالنبى صلى الله عليه فى التوراة والإنجيل الآيات التى وردت لتؤكد أن علماء بنى إسرائيل كانوا يعرفون مبعث محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول تعالى ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[2] .

ويقول سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[3] .

ويقول عز وجل ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾[4] .

وهذا يدل على أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد صلى الله عليه وسلم، إما شهادتها بثبوته وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات ونبوة من قبله وهو حجة على أهل الكتاب وغيرهم[5] .

ونتساءل :

ما هى الأسباب التى جعلت اليهود والنصارى ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن تبين لهم الحق وعلموا أنه النبى المنتظر؟

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/٣٠١، ٣٠٢).

(٢) سورة الأنعام الآية (١١٤).

(٣) سورة البقرة الآية (١٤٦).

(٤) سورة المائدة الآية (٨٣).

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/٢٩٩).

لقد بدا أن هناك أسبابًا عامة يشترك فيها اليهود والنصارى

وتتمثل في:

١ ـ حب الرياسة والجاه.

٢ ـ ادعاء كل من اليهود والنصارى بعدم نسخ شريعتيهما بالإسلام .

وهناك أسباب خاصة بكل من اليهود والنصارى:

فبالنسبة لليهود تتمثل هذه الأسباب فى :

أ ـ الحسد.

ب ـ كراهيتهم لجبريل عليه السلام.

ج ـ ادعاؤهم أن الله عهد إليهَم ألا يؤمنوا لرسول حتى ينزل عليهم قربانًا من السماء.

أما بالنسبة للنصارى، فإن هناك سببًا جوهريًا جعلهم يرفضون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، تمثل هذا السبب فى تأكيد الرسول صلى الله عليه وسلم على عبودية المسيح، وما كان النصارى ليوافقوا على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يرفض ألوهية المسيح، وسنتحدث عن الأسباب العامة التى يشترك فيها اليهود والنصارى ثم نتبعها بالأسباب الخاصة بكل من اليهود والنصارى.

أولاً : الأسباب العامة التى يشترك فيها اليهود والنصارى لإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

١ ـ حب الرياسة والجاه:

أ ـ عند اليهود:

من الأسباب الرئيسة التى منعت اليهود من الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم حب الرياسة والجاه، وقد وردت روايات متعددة اعترف فيها اليهود بأن محمدًا على الحق ولكن يمنعهم من الاعتراف به والإذعان له أنهم سيصيرون أتباعًا بعد أن كانوا متبوعين، حدث هذا بين زعماء اليهود وذلك أن "بنى النضير" لما أُجلوا عن المدينة أقبل "عمرو بن سعدي" فأطاف بمنازلهم فرأى خرابها ففكر ثم رجع إلى "بنى قريظة" فوجدهم فى الكنيسة فنفخ فى بوقهم فاجتمعوا فقال "الزبير بن باطا" : يا أبا"سعيد" أين كنت منذ اليوم فلم تزل، وكان لا يفارق الكنيسة؟ وكان عزيزًا فى اليهودية قال: رأيت اليوم عبرًا اعتبرنا بها رأيت إخواننا قد جلوا بعد ذلك العز والجاه، والشرف الفاضل، والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم وخرجوا خروج ذل، لا والتوارة ما سُلط هذا على قوم قط لله بهم حاجة. وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذى عزة بيَّته فى بيته آمنًا وأوقع بابن سنينة سيدهم، وأوقع ببنى قينقاع فأجلاهم وهم أصل جد يهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة فحصرهم فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم فكُلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب يا قوم قد رأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدًا فو الله إنكم لتعلمون أنه نبى قد بشرنا به ويأمره "ابن الهيبان" وأبو "عمير بن حراش" وهما أعلم يهود جاآنا يتوكفان قدومه من بيت المقدس وأمرانا باتباعه وأمرانا أن نُقرئه منهما السلام ثم ماتا على دينهما ودفناهما بحرتنا فأُسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم، ثم أعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء.فقال "الزبير ابن باطا" قد والتوراة قرأت صفته فى كتاب التوراة التى نزلت على موسى ليس فى المثانى الذى أحدثنا قال: فقال له

كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه؟ قال: أنت يا كعب. قال: كعب فلم؟ والتوراة ما حلت بينك وبينه قط؟ قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه وإن أبيت أبينا. فأقبل عمرو بن سعد على كعب فذكر ما تقاولا فى ذلك إلى أن قال عمرو: ما عندى فى ذلك إلا ما قلت ما تطيب نفسى أن أصير تابعًا"(١) .

ويعلق ابن القيم على هذا النص بقوله:

"وهذا المانع هو الذى منع فرعون من اتباع موسى فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى عليه السلام فقال وزيره هامان بينما أنت إله تُعبد تصبح تابعًا لغيرك قال: صدقت"(٢) .

والمتأمل فى قول كعب يظهر له بوضوح أن الرياسة التى كان يتمتع بها أشراف اليهود منعتهم من الإيمان بمُحمد صلى الله عليه وسلم، واستنكفوا أن يسمعوا لأحد كائنًا من كان حتى ولو كان هو المبشر به فى التوارة والذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، لأنهم سيصيرون أتباعًا بعد أن كانوا متبوعين.

يقول ابن القيم: "وقد ناظرنا نحن وغيرنا جماعة منهم تبين لبعضهم فساد ما هم عليه قالوا: لو دخلنا فى الإسلام لكنا من أقل المسلمين لا يأبه لنا، ونحن متحكمون فى أهل ملتنا فى أموالهم ومناصبهم ولنا بينهم أعظم الجاه"(٣) .

لقد كان ما يحظى به أحبار اليهود من الجاه والسلطان عند أتباعهم من أكبر العوامل التى جعلتهم لا يصدقون بالرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام الغزالي: "وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم لمن نسخ علمهم"(٤) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٨٠، ٨١) مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ م.

(٢) انظر: هداية الحيارى ص (٥٢ ، ٥٣) بتصرف.

(٣) هداية الحيارى لابن القيم ص (٤٧، ٤٦).

(٤) إحياء علوم الدين (٩/ ١٦٨٨).

ب: عند النصارى:

من الأسباب العامة التى يشترك فيها اليهود مع النصارى: حب الرياسة والحرص على الدنيا.

إذ أن النصارى بعد أن وضح لهم الحق وعرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه المبشر به فى كتبهم كان يجب عليهم أن ينصاعوا ويقبلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولكن حرصهم على الدنيا منعهم من ذلك، وعلى الرغم من أن رفضهم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم اتسم باللين والهدوء بعكس اليهود. والدليل على ذلك ما فعله "المقوقس" عظيم مصر إذ أنه بالرغم من عدم اعترافه بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أنه رد ردًا جميلاً على رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ويعث مع حامل الرسالة بالهدايا للنبى صلى الله عليه وسلم.

وقد أورد "ابن القيم" كتاب النبى إلى "المقوقس" عظيم مصر ونص الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط.. سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾** ﴾[1] .

ويعث به مع "حاطب بن أبى بلتعة"، فقال"المقوقس" إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر وأخذ كتاب النبى صلى الله عليه وسلم فجعله فى حُق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس

---

(١) سورة آل عمران الآية (٦٤).

عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيًا بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليكم"(١) .

ولم يسلم المقوقس!!!

ونرى أن عدم إيمان المقوقس بالنبى صلى الله عليه وسلم يرجع إلى خوفه على ملكه وسلطانه وحبه للدنيا وزخرفها، وإلا فما الذى يمنعه بعد أن أخبر بأنه يعرف النبى صلى الله عليه وسلم؟

والنموذج الثانى : هو هرقل عظيم الروم:

فقد أورد البخارى فى صحيحه أن هرقل عظيم الروم سأل أبا سفيان بن حرب وكان على الشرك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أسئلة ثم انتهى هرقل قائلاً لأبى سفيان: "فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه"(٢) .

وفى رواية أخرى أن "هرقل" نادى" فقال يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتابعوا هذا النبي. فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نعرتهم وأيس من الإيمان قال ردوهم علىَّ وقال إنى قلت مقالتى آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل"(٣) .

وهذا النموذج يرينا إلى أى حد كانت الرئاسة والملك تمنع النصارى من الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) زاد المعاد (٦١/٣) بتصرف

(٢) رواه البخارى باب بدء الوحى (٦/١)، والرواية طويلة وإنما اختصرناها لأن ما يهمنا هو موقف هرقل النهائى.

(٣) صحيح البخارى باب بدء الوحى (١/ ٧ ، ٨).

ويبدو أن هذا المانع كان السبب فى عدم إيمان علماء النصارى بعد اعترافهم بالحق.

فقد أورد ابن القيم أنه ناظر أحد علماء النصارى معظم يوم فلما تبين له الحق بُهت "فقلت له وأنا وهو خاليين: ما يمنعك الآن من اتباع الحق؟ فقال لى : إذا قدمت على هؤلاء الحمير (هكذا لفظه) فرشوا لنا الشقاف تحت حوافر دابتى وحكمونى فى أموالهم ونسائهم ولم يعصونى فيما آمرهم به، وأنا لا أعرف صنعة، ولا أحفظ قرآناً، ولا نحوًا، ولا فقهًا، فلو أسلمت لدرت فى الأسواق أتكفف الناس فمن الذى يطيب نفسًا بهذا؟ فقلت: هذا لا يكون، وكيف تظن بالله أنك آثرت رضاه على هواك يخزيك ويذلك ويحوجك؟ ولو فرضنا أن ذلك أصابك فما ظفرت به من الحق والنجاة من النار ومن سخط الله وغضبه فيه أتم العوض عما فاتك فقال حتى يأذن الله.

فقلت : القدر لا يحتج به ولو كان القدر حجة لكان حجة لليهود على تكذيب المسيح وحجة المشركين على تكذيب الرسل ولا سيما وأنتم تكذبون بالقدر فكيف تحتج به؟ فقال: دعنا الآن من هذا وأمسك"[1].

وإذا كان حب الجاه والسلطان والدنيا مسيطرًا على النصارى على هذا النحو فهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المانع لهم الدنيا وزخرفها وهذا ما يمنع النصارى الآن من الدخول فى الإسلام.

---

(١) هداية الحيارى ص (٢٢٥).

٢ـ ادعاء اليهود والنصارى أن التوراة والإنجيل لم ينسخا بالقرآن الكريم:

أ ـ اليهود:

زعم اليهود أن شريعة موسى هى أول شريعة لم يتقدم مثلـها لأحد ولا يكون غيرهـا أبـدًا [١]، وأخـذوا من ذلك مسوغًا لعدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

يصور القرآن الكريم موقفهم فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [٢].

يقول ابن ميمون اليهودي:

"إن دعوة سيدنا موسى لنا لم تتقدم مثلها لأحد ممن علمناه من آدم إليه ولا تأخرت بعده دعوة مثلها لأحد من أنبيائنا، وكذلك قاعدة شريعتنا أن لا يكون غيرها أبدًا فلذلك بحسب رأينا لم تكن ثم شريعة ولا تكون غير شريعة واحدة هى شريعة سيدنا موسى" [٣]

وأما عن الأنبياء بعد موسى عليه السلام فإن "ابن ميمون" يقرر أنهم كانوا بمنزلة الوعاظ للناس داعين لشريعة موسى يتواعدون الراغب عنها ويعدون من استقام فى اتباعها، وهذه الشريعة أبدية لبنى إسرائيل.

ويستدل ابن ميمون بنص فى سفر التثنية يقول: "السرائر للرب إلهنا والمعلقات لنا ولبنينا إلى الأبد لنعمل بكلمات هذه الشريعة" [٤].

---

(١) دلالة الحائرين ص (٤١١ ، ٤١٢). لموسى بن ميمون اليهودي.

(٢) سورة البقرة الآية (٩١).

(٣) دلالة الحائرين ص (٤١١ ، ٤١٢).

(٤) سفر التثنية ٢٩/٢٩.

واليهود على اختلاف فرقهم ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باستثناء فرقة منهم تدعى "الموشكانية " أشار إليها" الشهرستاني" أثبتوا النبوة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكن خصصوا رسالته إلى العرب ولسائر الناس، باستثناء اليهود ويحتجون بأن اليهود أهل ملة وما سواهم لا ملة لهم[1].

ويربط اليهود بين النسخ والبداء[2]. ويقولون إن النسخ فى الأوامر بدَاء والبدَاءُ لا يجوز على الله تعالى [3] إذ عندهم "كيف يجوز أن يُنسب إلى الله تعالى كتاب ينقض بعضه بعضًا يريدون بذلك ينسخ بعضه بعضًا" [4].

أما فيما يتعلق بالشرائع فإنهم قد استنكروا أن يبدل الله آية بآية أخرى أو حكمًا بحكم آخر وكانوا يأخذون من جواز النسخ عند المسلمين مسوغًا لعدم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وكانوا يقولون ها هو محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولاً ثم يرجع فيه غدًا[5].

هذا عن اليهود، فهم يعتبرون أن شريعة موسى هى الشريعة الأبدية ومن ثمَّ فهم لا يعترفون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويعيبون فى الوقت نفسه على جواز النسخ عند المسلمين ويعتبرون أن النسخ بداء استصواب شئ بعد أن لم يعلم.

ب ـ أما عند النصارى:

فإن بعض النصوص وردت فى العهد الجديد عن السيد المسيح عليه السلام مؤداها أنه ما جاء لينقض وإنما جاء ليكمل.

ورد فى متى: "ولا تظنوا أنى جئت لأنقض بل لأكمل فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل"[6].

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى (٤٦/٢ ، ٤٧).

(٢) البداء : ظهور الرأى بعد أن لم يكن واستصواب شئ بعد أن لم يعلم ويقال بدا لى فى هذا الأمر بداء أى ظهر لى فيه رأى آخر. المعجم الوسيط (٤٥/١).

(٣)الملل والنحل للشهرستانى(٤٢/٢) بهامش الفصل لابن حزم.

(٤)إفحام اليهود ص (١٥٥).

(٥) بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ص (١٥٣ ، ١٥٤).

(٦) انجيل متى ٥ ـ ١٨ : ١٧.

وقد أخذ النصارى هذا النص، وأنكروا جواز النسخ عقلاً وأنكروا وقوعه ليصلوا من هذا الإنكار إلى غاية حرصوا عليها وهى بقاء دينهم بجانب الدين الإسلامى بحجة أن شريعةً لا تنسخ بشريعة وأن حكما فى شريعة لا ينسخ بحكم فى شريعة بعدها[1].

فالنصارى كاليهود كلاً منهما أنكر النسخ ليصل من خلال إنكاره إلى إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومع إنكار محمد عند اليهود ينكرون عيسى عليه السلام أيضًا.

(١) انظر النسخ فى القرآن ص (٤٤، ٤٥، ٤٨) للدكتور مصطفى زيد.

الرد على مزاعم اليهود والنصارى فى عدم النسخ

أولاً: اليهود:

يبين الله عز وجل كذب اليهود فى رفضهم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم تحت دعوى الاكتفاء بما أنزل على أنبيائهم الذين أتوا بتقرير شريعة موسى عليه السلام فيقول الله كاشفًا لسلوكهم المشين مع أنبيائهم﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾[1].

وهذه الآية تبين كذب اليهود وافترائهم من وجوه:

الأول: أن دعوى اليهود بأنهم يؤمنون بالتوارة التى نزلت عليهم فيها تناقض لأن التوراة تدل على الصدق، ودلت أيضًا على أن من كان صادقًا فى ادعاء النبوة ثم قُتِل فإن قتله يقتضى كفر من قتلوه واليهود قتلوا أنبياءهم مثل "زكريا" و"يحيى" عليهما السلام، وهموا بقتل "عيسى" عليه السلام ولكن الله عز وجل نجاه منهم.

الثاني: أن دعوى اليهود منقوضة لأنهم لم يلتزموا بما جاء به موسى عليه السلام واتخذوا العجل فى حياته ولو كانوا مؤمنين حقًا بالتوراة، وبموسى ما فعلوا ذلك.

الثالث: أنه لما ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات التى ظهرت على يديه وبما تواتر لدى اليهود من البشارة به فى التوراة كان الإيمان به واجبًا لا محالة، وعند هذا يتضح أن الإيمان ببعض الأنبياء وببعض الكتب والكفر بالبعض الآخر خروج عن الإيمان والتصديق أصلاً وفصلاً ومن ثمَّ يظهر كذب اليهود فيما ادعوه من الإيمان بموسى وبأنبيائهم، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه.

---

(١) سورة البقرة الآية (٩٢، ٩١).

أما ما يزعمه اليهود من أن شريعتهم أبدية وهو ما ذكره ابن ميمون فيرد عليهم، وعليه بما ورد فى التوراة التى بين أيديهم من أن هناك نبيًا منتظرًا يأتى وهم مأمورون بالإيمان به واتباعه.

ورد فى سفر التثنية: "يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون"[١].

وورد فى نفس السفر: "أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به بأسمى أنا أطالبه"[٢].

وهذا النص والذى قبله يشيران إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الله عز وجل يقول سأجعل لبنى إسرائيل نبيًا من إخوتهم، وإخوتهم أولاد إسماعيل عليه السلام ولو كان النبى من أولاد يعقوب لقال منهم أو من أنفسهم ولم يقل من إخوتهم لأنه قد ورد فى التوراة الحالية أنه لا يكون نبى من بنى إسرائيل مثل "موسى"، فلابد وأن يكون من غير بنى إسرائيل وبأن المراد به محمد صلى الله عليه وسلم[٣].

أما استدلال فلاسفتهم مثل "موسى بن ميمون" على أبدية الشريعة، فإن كلمة الأبد وردت فى العهد القديم بمعنى المدة المحدودة، فقد ورد فى سفر التثنية: "لا يدخل عمونى ولا موآبى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد فى جماعة الرب إلى الأبد"[٤].

وهذا يدل على أن الأبد هنا محدد[٥]. بالجيل العاشر، وكذلك شريعة موسى ليست أبدية إلى يوم القيامة وإنما هى مؤقتة بظهور النبى صلى الله عليه وسلم ومن هنا يظهر كذب اليهود فى ادعائهم أبدية الشريعة اليهودية.

---

(١) سفر التثنية ١٨ ـ ١٥.

(٢) سفر التثنية ١٨ ـ ١٨ : ٢٠.

(٣) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص (١٤٦).

(٤) سفر التثنية ٢٣/٣.

(٥) اشعياء ٦٠ـ ٢٠ : ٢٢.

وقد أورد الإمام السموآل فى كتابه إفحام اليهود إلزامات على اليهود فى النسخ منها قوله فى مجادلتهم:

هل كان قبل نزول التوراة شرع أم لا؟

فإن جحدوا كذبوا بما نطق به الجزء الثانى من السفر الأول من التوراة، إذ شرع الله تعالى على نوح عليه السلام القصاص فى القتل ذلك بقوله "شيوفيخ دام ها أدام داموا يشافيخ كى بصلم ألوهيم عاما اث ها أدام"

تفسيره:

"سافك دم الإنسان فليحكم بسفك دمه لأن الله تعالى خلق الآدمى بصورة شريفة"[١].

وبما يشهد به الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة إذ شرع الله تعالى على إبراهيم عليه السلام ختانة المولود فى اليوم الثامن من ميلاده، وهذه وأمثالها شرائع لأن الشرع لا يخرج عن كونه أمرًا ونهيًا من الله عز وجل لعباده سواء نزل على لسان رسول أو كتب فى أسفار أو ألواح أو غير ذلك، فإذا أقروا بأن قد كان شرع، قلنا لهم : ما تقولون فى التوراة هل أتت بزيادة على تلك الشرائع أم لا؟ فإن لم تكن أتت بزيادة فقد صارت عبثًا إذ لا زيادة فيها على ما تقدم ولم تغن شيئًا فلا يجوز أن تكون صادرة عن الله تعالى فيلزمكم أن التوراة ليست من عند الله تعالى، وذلك كفر على مذهبكم وإن كانت التوراة أتت بزيادة فهل فى تلك الزيادة تحريم ما كان مباحًا أم لا؟

فإن أنكروا ذلك بطل قولهم من وجهين:

الأول: أن التوراة حرمت الأعمال الصناعية فى يوم السبت بعد أن كان ذلك مباحًا وهذا بعينه هو النسخ.

الثاني: أنه لا معنى للزيادة فى الشرع إلا تحريم ما تقدمت إباحته أو إباحة ما تقدم تحريمه[٢]. وهى إلزامات لا يمكن لليهود نقضها إلا بالمكابرة والجحود. وقد ورد فى أسفار اليهود ما يدل دلالة قاطعة على وجود النسخ فى الشريعة اليهودية،

---

(١) هذه هى ترجمة الإمام السموآل للنص العربي، أما ترجمة النص ذاته فى العهد القديم الآن فهو "سافك الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان" تكوين ٩ ـ ٦،

(٢) إفحام اليهود ص (٨٨، ٧٧، ٨٦)

وهناك نصوص حرمت عليهم بعض الأطعمة ونصوص أخرى أحلت لهم هذه الأطعمة.

من ذلك ما ورد فى سفر التكوين" وبارك الله نوحًا وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم كل دابة حية تكون لكم طعامًا كالعشب الأخضر دفعتُ إليكم الجميع"[1].

هذا النص يفيد أن الأطعمة كلها كانت حلالاً لنوح عليه السلام ولأبنائه ولكن هذا العموم وتلك الإباحة حرمت منها بعض الأطعمة، من ذلك ما ورد في نفس سفر التكوين ولكن فى زمان يعقوب"فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأنى نظرت الله وجهًا لوجه ونجيت نفسى وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يجمع على فخذه لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا"[2].

وكما هو واضح فإن يعقوب حُرم عليه ما أحل لنوح ولأبنائه أما فى زمان سيدنا موسى فإن هناك جملة من الأطعمة حرمت على اليهود من ذلك ما ورد فى سفر اللاويين" وكل دبيب يدب على الأ رض فهو مكروه لا يؤكل كل ما يمشى على بطنه وكل ما يمشى على أربع مع كل ما كثرت أرجله من كل دبيب يدب ولا تتبخسوا به، ولا تكونوا به، إنى أنا الرب إلهكم فتتقدسون فتكونوا قديسين لأنى قدوس ولا تبخسوا أنفسكم بدبيب على الأرض لا تأكلوه لأنه مكروه، لا تدنسوا أنفسكم بدبيب يدب على الأرض، هذه هى شريعة البهائم والطيور وكل نفس حية تسعى فى الماء وكل نفس تدب على الأرض للتمييز بين النجس والطاهر وبين الحيوانات التى تؤكل والحيوانات التى لا تؤكل"[3].

---

(١) سفر التكوين ٩ـ ١ : ٤.

(٢) سفر التكوين ٣٢ـ ٣٠ : ٣٣.

(٣) سفر اللاويين ١١ ـ ٤١ ، ٤٧. وقد اكتفيت هنا بإيراد بعض الفقرات وإلا فإن الإصحاح كله أسماء حيوانات وطيور وأسماك. هذه تؤكل هذه لا تؤكل مثل الأرنب والجمل وكل ما ليس مشتوق الظفر والضب والفار وأصناف متعددة مذكورة بأسمها.

وهذا النص أوضح من سابقيه فى تحريم بعض الأطعمة التى أحلت لنوح وليعقوب عليهما السلام، وكما فعل الله مع نوح ويعقوب وموسى وعيسى فعل مع محمد صلى الله عليه وسلم، فقد نسخ الإسلام الشرائع السابقة التى قبله، وجاء بحل لكثير من الأطعمة التى حُرمت على اليهود بسبب ظلمهم.

يقول تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾[1].

أما بالنسبة لأمة الإسلام فإن الله عز وجل قد أباح كل الأطعمة باستثناء بعض المحرمات. يقول تعالى ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وبعض الأطعمة الأخرى التى وردت فى السنة مثل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطيور والحمر الأهلية.

وغرضنا من هذا كله أن نبين أن النسخ كان موجودًا فى شريعة الأنبياء قبل وبعد موسى عليه السلام كما أوضحنا.

بقيت نقطة أخيرة: وهى ربط اليهود بين النسخ والبداء:

إن النسخ لا يغير أمرًا قد استحدث عند الله بعد أن لم يكن، وإنما هو جديد بالنسبة للبشر فقط أما بالنسبة لله تعالى فهو قد سبق فى علمه وأظهره فى وقت حدده سبحانه وتعالى، فالنسخ يعتبر تحقيقًا لما علمه الله لا اعتراضًا عليه، ومثال ذلك ولله المثل الأعلى: حين يعالج الطبيب مريضًا فيرى أن المرحلة التى يجتازها من مراحل مرضه يصلح لها دواء معين وهو يعلم المدة التى يجب أن يتُناول الدواء فيها، ثم يصف بعد مدة أخرى دواء آخر يصلح له فى هذه المرحلة لا يوصف الطبيب أنه كان جاهلاً لأنه وصف دوائين فى فترتين مختلفتين، لأنه هو الذى قد حدد حالة المريض منذ البداية والله عز وجل سبق فى علمه شريعة معينة تصلح لوقت معين وشريعة

---

(١) سورة النساء الآية (١٦٠).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٤٥).

أخرى تصلح لوقت آخر تنسخ سابقتها، هل يوصف بالجهل؟ تعالى الله عما يصفه به اليهود"[١].

ونحن نتساءل إذا كان النسخ موجودًا بالنصوص التى أوردناها من عند اليهود وان النسخ لا يستلزم البداء فلماذا ينكر اليهود النسخ؟

والجواب على هذا من خلال دراسة الباحث ينحصر في:

أولاً: أن اليهود يكتمون الحق وهم يعلمونه.

ثانيًا: أن اليهود اختلقوا مسألة عدم جواز النسخ لا لأن شريعتهم لا تقول بذلك، ولكنهم يقصدون من وراء إنكارهم النسخ ووقوعه إنكار نبوة عيسى عليه السلام أولاً، وثانيًا إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بناءً على أن شريعتهم أبدية كما يزعمون وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة لها، ومن ثمّ فهم قد اخترعوا عدم جواز النسخ لهذا السبب.

---

(١) انظر النسخ للدكتور مصطفى زيد ص (٣٠، ٣١) وانظر إفحام اليهود ص (٩٩، ١٠٠)،

الرد على النصارى فى منعهم النسخ:

ب ـ أما ما يدعيه النصارى من عدم جواز النسخ بناء على ما ورد فى إنجيل "متى"، فإنه قد ورد عن المسيح نفسه فى إنجيل "متى"حسب زعم النصارى ما يفيد النسخ، وورد أيضًا عن تلاميذه ما يفيد ذلك، أما ما ورد عن المسيح ففى إنجيل "متى"ورد" وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدًا واحدًا فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا: فلماذا أوحى موسى أن يعطى كتاب طلاق فنطلق؟ قال لهم: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هذا وأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى والذى يتزوج بمطلقة يزني"[1].

وما ورد فى "متى" يخالف ما ورد فى سفر التثنية الذى ورد فيه: "إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فإن لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب بشئ وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر فإن أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة"[2].

فنصوص إنجيل "متى" حرمت الطلاق إلا بسبب الزنا.

ونصوص سفر التثنية أباحت الطلاق مطلقًا، ونص "متى" نسخ نص التثنية.

أما ما ورد عن تلاميذ المسيح فقد ورد فى أعمال الرسل ما نصه:

"فقد أرسلنا يهوذا وسيلا وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاها لأنه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر من غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا

---

(١) متى ١٩ ـ ٣: ١٠.

(٢) التثنية ٢٤ ـ ١: ٤.

عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا التى إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون كونوا معافين"[١].

وهذا النص يخالف ما ورد فى سفر اللاويين [٢] من تحريم جملة كبيرة من الأطعمة مذكورة بأسمائها فى السفر المذكور وقد أوردنا طرفًا منها عند حديثنا عن جواز النسخ فى شريعة اليهود، وهنا أمور كثيرة أحلها عيسى عليه السلام مثل الختان ووجوبه عند اليهود، فقد أباحه عيسى عليه السلام ومثل الراحة فى يوم السبت، فقد نسخها عيسى عليه السلام وإنما لم نكثر من الحديث عند النصارى لإلزامنا إياهم بما ألزمنا به اليهود، لأن النصارى تقدس العهد القديم والجديد معًا.

(١) أعمال الرسل ١٥ـ ٢٩ : ٢٦.

(٢) سفر اللاويين وانظر على وجه الخصوص الإصحاح ١١ ـ ٤١ : ٤٧.

الأسباب الخاصة التى جعلت اليهود لا يعترفون بالنبى ﷺ

١ـ الحسد:

الحسد مرض نفسى لعين وداء فى النفس وحين يرى الحاسد المحسود وقد منَّ الله عليه بشئ لم يؤت مثله فإن الحسد لا يدعه ينقاد للمحسود ويكون من أتباعه،

وللحسد أسباب كثيرة ذكرها الإمام الغزالى فى الإحياء منها:

[١] العداوة والبغضاء والحسد بسبب البغض الذى يفضى إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحِيَل وما يجرى مجراها. وقد ولدت العداوة والبغضاء كل الرذائل التى مارسها اليهود مع الرسول والمسلمين.

[٢] التعزز: وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره وقد كان هذا من ضمن الأسباب التى جعلت اليهود لا يقبلون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

[٣] الكبر : ذلك أن اليهود فى طبعهم من الحقد والاستكبار ما جعلهم يمتنعون عن الانصياع لرسالة الإسلام.

[٤] التعجب: واليهود كانوا أكثر الناس عجبًا بأنفسهم فقد زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه.

[٥] الخوف من فوت المقاصد. فقد خاف اليهود من فوت المال والسلطان إذا دخلوا فى الإسلام.

[٦] خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله. واليهود لم يكتفوا بالبخل والشح وإنما أضافوا على خسائسهم الاعتراض على فضل الله بإعطائه النبوة للرسول صلى الله عليه وسلم[١].

(١) إحياء علوم الدين (١٦٨٦/٩ ـ ١٦٨٨) وانظر الدعوة والإنسان ص (٤٣٦، ٤٣٧).

وقد حسد اليهود النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الأسباب كلها وزيادة على ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة ناسخة لشريعتهم وبكّت اليهود، وبينَّ مكرهم وخداعهم لله ورسله، بل وقاتلهم وحاربهم وأخرجهم من ديارهم، ولم يملكوا معه شيئًا، فكيف لا يملك الحسد والبغى قلوبهم وهم مستعدون لذلك؟

وقد تتبعت الآيات القرآنية التى وصفت أهل الكتاب بالحسد فوجدت فى سبب نزولها أنها خاصة باليهود فحسب، وهذا ما جعلنى أذكر الحسد بجانب اليهود بالرغم من أن عموم الآيات فى القرآن الكريم تذكر أن الحسد عام فى أهل الكتاب، وقد ظهرت مواقف من اليهود تبين حسدهم للنبى صلى الله عليه وسلم.

منها: قولهم للمشركين حين سألوهم نحن على الحق أم محمد؟ فقالوا لهم بل أنتم على الحق.

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس "كان الذين حزَّبوا الأحزاب على الرسول صلى الله عليه وسلم من قريش وغطفان وبنى قريظة : " حيِّى بن أخطب"و"سلام ابن أبى الحقيق"وأبو رافع و"الربيع بن أبى الحقيق"و"أبو عمارة"و"هوذة بن قيس" وكان سائرهم من بنى النضير فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود أهل العلم بالكتب الأولى فاسألوهم أدينكم أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[1].

والحسد الذى تم من اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم بسبب النبوة التى تفضل الله بها عليه وضم إليه أنه جعله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أنصارًا

---

(١) سورة النساء الآية (٥١ : ٥٤) وانظر لباب المنقول فى أسباب النزول للسيوطى ص (١١٣ ، ١١٤).

وأعوانًا وكل ذلك مما يوجب الحسد العظيم، والله عز وجل يعنف اليهود لحقدهم وحسدهم للرسول صلى الله عليه وسلم بالذات.

مع أن الله عز وجل جعل فى أولاد إبراهيم النبوة والملك، واليهود لا يتعجبون من ذلك ولا يحسدونهم، فَلِمَ يتعجبون من محمد ويحسدونه؟[١].

والحسد من جانب اليهود لم يقف عند حد النبى صلى الله عليه وسلم وإنما تعداه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم..

يقول الله تعالى ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) ﴾[٢].

إن الحسد من جانب اليهود الذى ينبعث منهم يسببه الحقد والكراهية إلى درجة أنهم يتمنون أن يعود المسلمون كفارًا.

فقد أورد "الرازي" أن نفرًا من اليهود منهم "فنحاص بن عاذوراء و"زيد بن قيس" قالوا لجماعة من المسلمين منهم" حذيفة بن اليمان" و"عمار بن ياسر" بعد غزوة أحد: ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً فرفضوا وردوا عليهم بأنهم لا يتركون دينهم ماداموا على قيد الحياة ثم أتوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبروه فقال أصبتم وأفلحتم فنزلت هذه الآية "ود كثير من أهل الكتاب"[٣].

ولم يتوقف الحسد عند حد الانفعال الأسود الخسيس تجاه الإسلام والمسلمين بل تعداه إلى هممهم بقتل النبى صلى الله عليه وسلم ومعاونتهم المشركين فى غزوة الخندق.

فقد أورد ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين قتلهما المسلمون خطأ. فلما ذهب إليهم قالوا: "نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببتَ مِمَّا استعنتَ بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازى (١٠/١٣٢، ١٣٣).

(٢) سورة البقرة الآية (١٠٩).

(٣) انظر الرازى (٣/٢٦٢، ٣٦٦٣) وفى ظلال القرآن (١/١٠٢، ١٠٣).

إنكم لم تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه. فانتدب لذلك "عمرو بن جحاش بن كعب" أحدهم فقال: أنا كذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم"[(١)].

ودفع بنو النضير " جزاء حسدهم وبغيهم وخيانتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، وأجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ديارهم بعد أن شفع فيهم رأس المنافقين "عبد الله بن أبى بن سلول".

وما موقف بنى قريظة ببعيد عن موقف إخوانهم فى الكفر من بنى النضير فقد ظاهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحالفوا مع المشركين وسائر قبائل العرب حول المدينة، لولا أن عصم الله المسلمين من فتنة أحدقت بهم وزُلزلوا زلزالاً شديدًا، ورد الله المشركين بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال ووقع الجزاء الأوفى باليهود الذين خانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويتضح الحسد والحقد فى نفوسهم أثناء محاصرة النبى صلى الله عليه وسلم لهم من رفضهم للعرض الذى عرضه عليهم أحدهم وهو كعب بن أسد وذلك أنه قال لهم: (يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاث فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فو الله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره)[(٢)].

فقد وصل بهم الأمر والموت يحيط بهم من كل جانب أن يرفضوا نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم حسدًا وحقدًا وبغضًا للإسلام ولرسوله.

---

(١) سيرة ابن هشام (١١٤/٣).
(٢) سيرة ابن هشام (١١٤/٣).

وكما يقول أستاذنا الدكتور "عبد الله الشاذلي: فإن مسلك اليهود يجرى على وتيرة واحدة أنهم لا يعبأون بالأمر عند ظهوره فإذا ما رأوه نشط حاولوا احتواءه بشتى الوسائل وإذا ما قوى واجهوه بحدة وجمعوا له كل ما لديهم وجندوا له جنودهم واستنفروا همم المنكرين ليقفوا صفًا واحدًا ضد الحق، ولكن النتيجة المحتومة تكون دائمًا لصالح الحق المؤكد لا الباطل المموه[1]، وهذا ما حدث بالفعل فى الصراع بين الإسلام واليهود.

وهذا ما سيحدث إن شاء الله بين الإسلام واليهود فى المعركة الدائرة بينهم الآن.

وصدق الله العظيم إذ يقول: "﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾"[2].

[٢] دعوى اليهود أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا برسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار:

لقد زعم اليهود وافتروا كذبًا على الله رب العالمين أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا برسول حتى يأتيهم بآية حسية محددة تتمثل فى قربان يأكله النار وهم يقصدون من وراء ذلك عدم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم لأنه ما دام لم يأتهم بقربان فليس برسول من عند الله.

يقول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[3].

والله عز وجل يقيم الحجة على اليهود أنه إذا كان الشرط نزول قربان، فإن هذا الشرط قد تحقق على أيدى رسل من قبل النبى صلى الله عليه وسلم ومع ذلك كذبهم اليهود وقتلوهم، هذا على فرض صحة كلام اليهود أن الله عهد إليهم بذلك[4].

---

(١) انظر بتصرف: الدعوة والإنسان ص (٤٥٩).
(٢) سورة غافر الآية (٥١).
(٣) سورة آل عمران الآية (١٨٣).
(٤) انظر تفسير الجلالين ص (٦٢).

ولكن الإمام الرازى يذهب إلى أن ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة ويستدل على ذلك بوجوه منها :

(١) لو كان ذلك حقًا لكانت معجزات الأنبياء كلها هذا القربان، ومعلوم أن معجزات الأنبياء ما كانت هذا القربان كما دلت معجزات موسى عليه السلام مع فرعون عليه اللعنة.

(٢) أن نزول هذه النار وأكلها للقربان معجزة، فكانت هى وسائر المعجزات على السواء، فلم يكن فى تعيين هذه المعجزة وتخصيصها فائدة. ولما ظهرت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم وهى القرآن وجب القطع بنبوته سواء ظهرت هذه المعجزة أو لم تظهر.

(٣) أنه إما أن يقال أنه جاء فى التوراة أن مدعى النبوة وإن جاء بجميع المعجزات فلا تقبلوا قوله إلا أن يجئ بهذا القربان، أو يقال جاء فى التوراة أن مدعى النبوة يطالب بالمعجزة سواء كانت المعجزة هى مجيء النار أو شئ آخر والقول الأول باطل لأن على هذا التقدير لم يكن الإتيان بسائر المعجزات ولأعلى الصدق، وإذا جاز الطعن فى سائر المعجزات جاز الطعن أيضًا فى هذه المعجزة المعينة.

والقول الثانى باطل أيضًا لأنه يقتضى توقيت الصدق على ظهور مطلق المعجزة لا على ظهور هذه المعجزة المعينة، فكان اعتبار هذه المعجزة عبثًا ولغوًا، وهذا يدل على كذب اليهود فى كل الأحوال وعلى كل الاحتمالات[1].

٣ ـ كراهية اليهود لجبريل عليه السلام منعتهم من الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم:

من الأسباب التى جعلت اليهود لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم كون جبريل هو الذى ينزل بالوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) التفسير الكبير للرازى (٩/١٢٠ ، ١٢١) بتصرف.

فقد أورد "السيوطي" فى لباب المنقول أن:"عمر كان يأتى اليهود فيسمع من التوراة فيتعجب كيف تصدق ما فى القرآن. قال :فمر بهم النبى صلى الله عليه وسلم فقلت نشدتكم بالله أتعلمون أنه رسول الله فقال عالمهم: نعم. نعلم أنه رسول الله. قلت: فلمَ لا تتبعونه؟ قالوا: سألناه من يأتيه بنبوته فقال:عدونا جبريل لأنه ينزل بالغلظة والشدة والحرب والهلاك. قلت: فمن رسلكم من الملائكة؟ قالوا: ميكائيل ينزل بالقطر والرحمة. قلت: وكيف نزلهما من ربهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن الجانب الآخر قلت: فإنه لا يحل لجبريل أن يعادى ميكائيل، ولا يحل لميكائيل أن يسالم عدو جبريل. وأننى أشهد أنهما وربهما سلْمٌ لمن سالموا وحرب لمن حاربوا. ثم أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن أخبره فلما لقيته قال: ألا أخبرك بآيات أنزلت عليّ؟ فقلت: بلى يارسول الله. فقرأ (مَنْ كان عدوا لجبريل ..) حتى بلغ (.. للكافرين) فقلت يارسول الله والله ما قمت من عند اليهود إلا إليك لأخبرك بما قالوا لى وقلت لهم فوجدت الله قد سبقني"[1].

وقد وردت روايات أخرى متعددة يقوى بعضها بعضًا على أن قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2].

وهذا الاعتراض من جانب اليهود على جبريل مماحكة وتنطع، وإلا فما دخلهم باختيار الله لملائكته لما حسدوا النبى صلى الله عليه وسلم أرادوا أن يعم حقدهم وحسدهم على ملائكة الله التى لا علم لأحد من خلق الله بهم إلا عن طريق رسل الله، ولكنهم أرادوا أن يدخلوا فى كل صغيرة وكبيرة وكأنهم أوصياء على خلق الله ورسله وملائكته أيضًا ولا يستغرب الإنسان كثيرًا لمثل هذه المماحكات، فقد افتروا على الله واتهموه بما لا يليق به، ولهم شبهات أخرى تتعلق بتحويل القبلة وسؤالهم النبى صلى الله عليه وسلم عن كيفية خلق الجنين ذكرًا أو أنثى فى بطن أمه وعن أشراط الساعة وغيرها كثير اكتفينا بأهم الشُبَهِ التى رفضوا الإسلام من أجلها.

---

(١) لباب النقول ص (١٥ : ١٧) وفتح البارى (١٣٥/٨).

(٢) التفسير الكبير للرازى (١٢٠/٩ ، ١٢١) بتصرف.

من الأسباب الخاصة عند النصارى فى إنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام:

وهذا السبب جعلهم يرفضون الإسلام ونبيه لأنهم لم يكن عندهم أدنى استعداد لأن يستمعوا من أحد أن عيسى عبد الله ورسوله. وقد ورد أن وفد نجران أتى النبى صلى الله عليه وسلم وكان محور الجدال حول ألوهية عيسى عليه السلام وفى هذا الحوار اعتبر وفد نجران أن قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه عبد الله ورسوله - نوع من الاستهزاء والسخرية بعيسى عليه السلام.

يقول الألوسي: ذكر غير واحد أن وفد نجران قالوا لرسول الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا؟ قال: ما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد الله. قال: أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانًا قط من غير أب فإن كنت صادقًا فأرنا مثله فأنزل الله تعالى ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

فقد اعتبر وفد نجران أن وصف عيسى بالعبودية فيه إهانة له، ولذلك لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من عُباد الجدل وعشاق الحوار دعاهم إلى المباهلة، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن تفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يامعشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبى مرسل، وقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم. ولقد علمتم ما باهل قوم نبيًا قط فبقى كبيرهم.

أما النصرانى فقال: "أنا لا أقول فى عيسى عليه السلام أنه كان نَبِيًّا بل أقول إنه كان إلهًا"[2].

ولقد تعرضنا لنفى ألوهية المسيح عند حديثنا عن النزعة المادية عند النصارى [3].

---

(١) سورة آل عمران الآية (٦١) وانظر الألوسى (١٨٦/٣) وانظر لباب المنقول ص (٨٥).

(٢) التفسير الكبير للرازى (٨/ ٨٣).

(٣) انظر رسالتنا للدكتوراة: موقف القرآن الكريم من الفكر المادي. كلية أصول الدين بطنطا سنة ١٩٩٠ م.

إنكار المستشرقين للنبى صلى الله عليه وسلم

تمهيد:

الإستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى وهو مصطلح واسع يشمل البحث فى العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يتعلق بالشرق عامة[١]، والمسلمين خاصة.

والهدف الأساسى من دراسة المستشرقين للشرق هو ما وضحه "رودى بارت " بقوله: "وعملنا على مستوى العلماء يسعى إلى هدف بعينه هو اختراق الأفق الفكرى الذى تفرضه البيئة حولنا وإلقاء نظرة إلى عالم الشرق لكى نتعلم من الكيان الغريب علينا كيف نحسن فهم إمكانيات الوجود الإنسانى وكيف نحسن بهذا فهم ذاتنا نحن فى نهاية المطاف"[٢]. فالهدف كما يصرح "رودى بارت " هو فهم ذاتهم هم أولاً وأخيرًا لأن الحروب الصليبية تركت فى نفوس الأوروبيين آثارًا عميقة. وجاءت بعد ذلك حركة الإصلاح الدينى فى أوربا على يد "مارتن لوثر، وكالفن "وغيرهما: فشعر المسيحيون بحاجات ضاغطة لإعادة النظر فى شرح كتبهم الدينية ولمحاولة فهمها على أساس تطورات حركة الإصلاح فاتجهوا إلى الدراسات العبرية التى أدتهم إلى العربية التى أدتهم إلى الإسلامية لأن فهم اللغة لا يتأتى إلا من خلال الدراسات الإسلامية. هذا من جانب النصارى.

أما من جانب اليهود فإن الدكتور "البهي" يذكر أن إقبال اليهود على الدراسات الإستشراقية كان بهدف إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بادعاء أن اليهودية هى مصدر الإسلام الأول، وكان لأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة ودولة[٣].

---

(١) التفسير الكبير للرازى (٩/١٢٠ ، ١٢١) بتصرف.

(٢) انظر الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية. تأليف رودى بارت، ترجمة مصطفى ماهر ، دار الكاتب العربي. وانظر المستشرقون ومشكلات الحضارة ص (١١) للدكتورة عفاف صبرة.

(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ملحق المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام ص (٤٧٣ ، ٤٧٤).

والاستشراق بدأ بداية فردية، وتشير المصادر إلى أن بداية الدرسات العربية والإسلامية ترجع إلى القرن الثانى عشر، ففى عام ١١٤٣م تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية واستمرت الدراسات الاستشراقية فى القرن الثالث عشر والرابع عشر وكان الهدف من ورائه إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحي[١].

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الاستشراق انتشر فى أوربا بصفة جدية بعد فترة الإصلاح الديني[٢].

(١) الدراسات العربية ص (٩).
(٢) الفكر الإسلامى الحديث ص (٤٧٢).

أهم شبهات المستشرقين حول النبوة:

ادعاؤهم أن القرآن الكريم ليس وحيًا من عند الله وإنما هو من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم.

تكاد تتفق كلمة المستشرقين على أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو مؤلف القرآن وقد تأثر بالبيئة العربية من حوله وظهر هذا فى القرآن الكريم كفكرة الإله الواحد.

يقول المستشرق الإنجليزى "جب" : "إن فكرة الوحدانية كانت معروفة فى غرب الجزيرة العربية، لقد كان وجود الإله الأكبر وهو الله مبدأ مقبولاً كأصل عام لدى محمد ولدى خصومه على السواء، والقرآن لم يناقش هذه النقطة أبدًا"(١).

وفكرة تأليف الرسول للقرآن لا يكاد يخلو كتاب لأحد من المستشرقين عنها.

أما "جولدتسيهر" فهو يرى أن رسالة الإسلام التى جاء بها النبى ليست"إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية مثل كلامه عن الدار الآخرة الذى استقاه من تاريخ العهد القديم وكان ذلك فى أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء(٢). ويردد هذا الكلام جُل المستشرقين(٣).

تفنيد هذه الشبهة:

سوف نتناول أصل الشبهة وهو تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن من مصدر بشرى من داخل الجزيرة العربية أو من خارجها.

---

(١) المذهب المحمدى لجب نقلاً عن الفكر الإسلامى الحديث ص (٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص (٥ ـ ٨) بتصرف كبير، اجناس جولد تسهير، ترجمة د/ محمد يوسف موسى وآخرين. الناشر دار الرائد العربي.

(٣) انظر الفكر الإسلامى الحديث ص (٢٠٢، ٢٠٣) وانظر دائرة المعارف الإسلامية (١٢ /٤١٦، ٤١٧) وانظر الاستشراق والخلفية الفكرية ص (٨٢، ٨٣) وانظر = صور استشراقية للدكتور عبد الجليل شلبى ص (٧٠ ـ ٧٢) وانظر سيكولوجية القصة فى القرآن ص (١٢).

ولنبدأ أولاً : بمكة من يا ترى من الممكن أن يعلم محمدًا؟ هل المكيون الذين كانوا فى ضلال مبين كما صرح القرآن؟ إن هذا الافتراض لا يقبله عقل ولا يؤيده نص من النصوص.

أما أن يكون أحد الذين يقرأون ويكتبون فى مكة هو الذى علم الرسول. وأول من تتجه الأنظار إليه "ورقة بن نوفل" لم يُعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم جلس إليه وتعلم منه قبل البعثة. والرواية التى تبين التقاء الرسول بورقة كان عن طريق خديجة وكان كلام ورقة للنبى محددًا بأنه النبى المنتظر ولم يثبت ولم ينُقل إلينا أنه لقن النبى مواعظ، كل ما ذكره أنه سيؤذى وسيخرجه قومه من مكة. وهذه المعلومات كان قد عرفها عن طريق بشارات الأنبياء فى التوراة والإنجيل بالنبى صلى الله عليه وسلم.

بقى احتمال آخر، وهو أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن من مجموعة من العبيد النصارى الذين كانوا يسكنون مكة كالحداد النصرانى الذى اتهم أهل مكة النبى بالتلقى عنه أو بعض الزنوج الأحباش الذين كانوا يبيعون النبيذ بمكة.

إن المستشرقين" يتركوننا فى غموض وإبهام ولا يقدمون لنا وثيقة واحدة عن علاقات فعلية للرسول لهذا النوع مَنْ الذين يمكن أن يتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم عنهم القرآن"[١].

وإذ لم يقدم المستشرقون أى وثيقة تثبت ذلك، فإننا ننفى نفيًا قاطعًا تعلم الرسول القرآن من أحد، لأن شواغله ما بين الرعى والتجارة تمنعه من الجلوس لأحد والتلقى عنه.

> أما زعمهم أنه تلقى القرآن من مصدر خارجى من خلال رحلاته التجارية وأسفاره فإن أشهر رواية فى هذا الزعم ادعاؤهم أنه التقى ببحيرا الراهب .... ونحن نناقش هذا الزعم فى مستويين:

---

(١) مدخل إلى القرآن ص (١٣٤).

المستوى الأول : مدى صحة هذه الروايات ومدى موافقتها للصواب.

وكما يقول الدكتور "دراز" الصواب يمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرًا لتعليم محمد، لأن هذه القصة إما أنها أسطورية أو أنه يتعين علينا أخذ كل الوقائع التى نذكرها فى الحسبان"(١).

وقد رجح أحد المستشرقين الاحتمال الأول إذ يقول: "لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها ونُشرت وبُحثت منذ ذلك الوقت بأن ترى فى الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال"(٢).

وقد أورد الأب "جورج قنواتي" ما يفيد ذلك، يقول عن أسطورة بحيرا "أسطورة مسيحية نشأت فى حضن جماعة فارسية وقد كتبت بالسريانية ثم نقلت إلى العربية وكان لها انتشار واسع فى الأوساط المسيحية فى القرون الوسطى"(٣).

المستوى الثاني: وعلى فرض صحة هذه المقابلة فإن بطلان القول بتعلم النبى من بحيرا ظاهر من عدة وجوه:

الأول: أن مقابلة بحيرا مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن على انفراد وإنما كانت مع كل أفراد القبيلة، فهل هذا الجو يسمح بالتعلم أساسًا، فضلاً عن تعليم على مستوى يعجز البشر الإتيان بمثله؟

الثاني: فليبين لنا المستشرقون ما الذى أخذه محمد بالضبط حتى نقف عليه، إن المنهج العلمى الذى يسيرون عليه يفرض عليهم أن يقدموا الدليل على دعواهم وليس عند أحد منهم أثارة من علم فى هذا ولو كان عندهم فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين.

---

(١) نفس المرجع السابق ص (١٣٤).

(٢) مقال هوارت بالجريدة الآسيوية عدد يوليو أغسطس ١٩٠٤ بعنوان مصدر جديد للقرآن نقلاً عن الدكتور دراز ص (١٣٤).

(٣) المسيحية والحضارة العربية . وقد حاول الباحث فى لقاء مع الأب قنواتى الحصول على معلومات عن هذه المخطوطة لتحقيقها ولكنه صرفنى عن البحث فى هذه المخطوطة وانتقل بالحديث إلى موضوع آخر بعيدًا عن البحث العلمي.

الثالث: أن هذه المقابلة فى حد ذاتها تنفى أن يعلم بحيرا محمدًا لأن بحيرا بشرَّ بالنبى صلى الله عليه وسلم وليس من المعقول أن يؤمن الراهب بهذه البشارة ثم يقف معلمًا للنبى الذى ينتظره، وهو يعلم أن هذا النبى سيتلقى عن الله ثم لو كان هذا الراهب هو الذى علم محمدًا لكان هو الأولى بالنبوة والرسالة.

الرابع: لو صح أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى من بحيرا لاستفاض ذلك ولعرفه أهل مكة ولسارعوا باتهام النبى بالتعلم من هذا الراهب بدلاً من الحداد الرومى الذى نسبوا إليه زورًا أنه يعلم الرسول القرآن[1].

هذا عن الرد على أصل الشبهة بوجه عام.

أما التفصيلات فهى تتمثل فى الآتي:

١ ـ أن فكرة الوحدانية استقاها محمد من البيئة العربية.

وفى الحقيقة يخلط "جب" المستشرق الإنجليزى وغيره بين فكرتين عن العرب:

الفكرة الأولى: هى وجود الله وتلك كانت حقيقة مسلمة بالفعل عند أهل الجزيرة العربية.

الفكرة الثانية: هى فكرة الوحدانية وهذه الفكرة هى التى كان يدور الجدال حولها وما كفر منْ كَفَرْ وما قُتِلَ من المشركين مَنْ قتل إلا بسببها.

ويأتى العرب ـ ويكذبهم فى هذا القرآن الكريم فى كثير جدًا من الآيات لأن الوحدانية التى نادى بها الرسول صلى الله عليه وسلم ـ هى التى وقف أهل مكة فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم من أجلها، ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝ ﴾[2].

والذى لم يسمع عنه أهل مكة من قبل النبى صلى الله يعتبره المستشرقون ذائعًا ومعروفًا، بل ومسلمًا له. وما يفعله المستشرقون قائم على التخبط والاضطراب ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.

---

(١) انظر مدخل إلى القرآن ص (١٣٤ ـ ١٣٥) ومناهل العرفان للزرقانى (٢/ ٤٢٢) الطبعة الثالثة، دار الفكر.
(٢) سورة ص الآية (٥ : ٧).

أما ادعاؤهم أن هناك تشابهًا بين قصص الأنبياء فى القرآن والعهد القديم فزعمهم هذا باطل لعدة أسباب:

الأول: أنهم إذا قالوا عرف قصص الأنبياء السابقين عن طريق المشافهة فقد أبطلنا هذا الفرض من جميع وجوهه، إن كان فى الجزيرة العربية أو فى خارجها.

الثاني: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ثم إنه لم تكن ترجمة عربية للكتاب المقدس، وهنالك حدث مؤكد فيما يتصل بالعهد الجديد وهو أنه حتى القرن الرابع الهجرى لم تكن قد وضعت ترجمة عربية مما اضطر الإمام الغزالى أن يلجأ إلى مخطوط قبطى ليكتب كتابًا فى الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل. وإذا كان القرن الرابع الهجرى لا توجد فيه ترجمة عربية للعهد الجديد فمن باب أولى ألا توجد ترجمة للعهد القديم لكى يتعلم منها النبي، ثم إن القرآن تحدى اليهود أن يظهروا التوراة فلم يفعلوا، وهذا يدل على عدم وجودها زمن النبى صلى الله عليه وسلم.

يقول تعالى ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١).

الثالث: أن الله عز وجل كان يعقب على كل قصة يذكرها النبى صلى الله عليه وسلم أن هذه القصة لم يكن يعلمها النبى صلى الله عليه وسلم ولا أحد من قومه، ففى قصة مريم جاء قول الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾(٢).

وبعد قصة سيدنا يوسف عليه السلام جاء قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾(٣).

أما ادعاؤهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ فكرة البعث والجزاء من جنة ونار عن اليهود والنصارى فهذا من أعجب العجب، وكما يقال إذا لم تستح فافعل

---

(١) سورة آل عمران الآية (٩٣) وانظر الظاهرة القرآنية ص (٢٥٢ ـ ٢٥٤) مالك بن نبي.

(٢) سورة آل عمران الآية (٤٤).

(٣) سورة يوسف الآية (١٠٢)، وانظر سورة هود الآية (٤٩) وسورة القصص الآية (٤٦ : ٣٣).

ما شئت.. ها هو العهد القديم والعهد الجديد أمامنا بطبعاته الأجنبية أو بترجماته العربية.

أين ما فى العهد القديم من نصوص حول البعث حتى يأخذها الرسول صلى الله عليه وسلم منه؟

إن الأسفار الخمسة تخلو عن أى إشارة عن البعث والجزاء اللهم إلا من نص واحد مختلف حوله هل المقصود به الجزاء فى الدنيا أو فى الآخرة؟

هذا النص هو:

"أليس مكنوزًا عندى مختومًا عليه فى خزائنى لى النقمة والجزاء فى وقت تزل أقدامهم"(١). وقد اختلف حوله (٢).

ونحن لا نسلم بخلو التوراة من البعث والجزاء لأنه لا يمكن لكتاب من عند الله منزل وليس فيه الحديث عن الآخرة، ولكن نقول لهؤلاء المستشرقين إن العهد القديم أمامكم فأخرجوا منه النصوص التى تدل على البعث والجزاء، بل إن اليهود أنفسهم يعترفون بذلك، ولا أدرى لماذا لم يتنبه اليهودى المجرى جولد تسهير لذلك؟

أما العهد الجديد فهو موجود أيضًا، فليخرج لنا المستشرقون أوصاف الجنة التى زعم محررو دائرة المعارف الإسلامية أن الرسول تأثر بالنصارى فى أوصافها، ها هو أحد النصارى يصرح بأن العهد الجديد "لم يقل إلا قليلاً لإشباع رغبة حب الاستطلاع والوقوف على وصف تفصيلى مسهب للعالم الآخر"(٣).

إن الأمر عند المستشرقين ليس أمر تأثير ولكن التعصب الأعمى هو الذى يجعلهم يرفضون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويسلمون بنبوة موسى وعيسى إن كانوا من النصارى أو بنبوة موسى، إن كانوا من اليهود، إن ما يقومون به من رفضهم وطعنهم فى نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتناسب مع العقل والمنطق والبحث العلمي.

---

(١) سفر التثنية ٣٢ـ ٣٤ : ٣٥.

(٢) انظر السنن القويم فى تفسير العهد القديم (٢/ ٥٠) الناشر مجمع كنائس الشرق الادنى سنة ١٩٧٣، وانظر التوراة السامرية سفر تثنية الاشتراع ٣٤: ٣٨ ص ٣٩٢، ٣٩٣.

(٣) أديان العالم. حبيب سعد ص (٢٤٨)، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية.

يقول الدكتور البهي : "إن الأمر الذى يجب أن ينكره البحث العلمى بهذا التحديد فهو أن يناقش نوع من الوحى ويتشكك فيه باسم العلم ثم يصان نوع آخر منه على أنه بديهى التسليم وبعيد عن مجال الجدل العقلى النظرى أو العلمى التجريبي"[1].

وهذا ما يفعله المستشرقون ، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض والوحى كل لا يتجزأ ، فإذا ما آمن الإنسان بمبدأ الوحى فإن ذلك يجب أن يشمل كل الوحى لا فرق بين وحى ووحى آخر.

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص (٢٢٠).

الفهرست